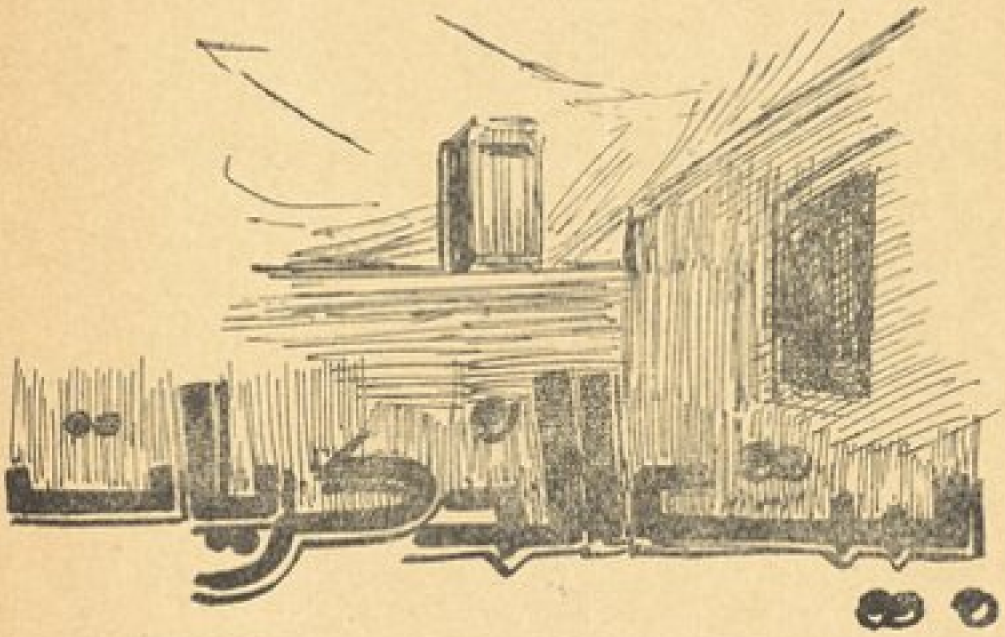

حازم مراد

بيت الذكريات

حازم مراد



رواية

ماذا يمكن ان تسمى الفتاة التي تبحث لها عن رجل لتتزوجه .

مجنونة .. عابثة .. جريئة .. طائشة .. خفيفة ..

لتكن ..

انا هي هذه الفتاة ..

اسمي ميادة ..

ميادة عبدالكريم .. فتاة في الخامسة والعشرين من عمري ، جميلة .. كل شيء في متناسق .. كل شيء ..

وجهي خمري بلون الشراب المعتق الذي تتمنى كل نفس ان تشرب منه لتذوب كلما استفاقت من سكرتها .. عيناي حالمتان بلون بندقتين كبيرتين .. شفتاي مكتنزتان مذبوحتان يقطر منهما الدم .. حاجباي رفيعان قد خطتهما انامل فنان مبدع ورقدا في سبات ابدي فوق العينين الحالمتين ابد الدهر .. شعري اسود طويل بلون الليل في منتصفه تماما .. طويلة ، جسدي الرشيق تسنده ساقان رائعتان ممتلئتان قليلا ..

و ..

اشياء اخرى كثيرة في جميلة ولن اقول ماهي ..

هذه انا ..

كتلة ملتهبة من الجمال ..

وكنت منذ صغرى ابحث في خيالي عن فارس الأحلام الذي سيأتي في يوم من الأيام ممتطيا صهوة جواده لينتزعنى من مكاني الذي اعيش فيه ويأخذني معه الى الجنة التي احلم بها حيث نعيش معا كل عمرنا لانفكر بالدنيا ولا بأهلها .. طعامنا الحب ، وشرابنا قبلات شهية نتبادلها كلما أحسسنا بالعطش لتعيننا على الحياة ..

لكن ..

الذي حدث اني قد كبرت ، وبلغت هذه السن ، وفارس الأحلام لم يأت ..

وقد لا يأتي ابدا ..

و ..

الحكاية ليست بسيطة ..

انها حكاية حياة او موت ..

وقد افتح عيني في الغد على الدنيا فأجد ان عمري قد بلغ عمر فتاة في سن يصعب فيه ان تحلم بالزواج .. تماما كعمتي نجيبة .. والذي يعرف عمتي يشهد بانه لم ير في وقت شبابها من كانت تضاهيها جمالا .. لكن ، ذنب عمتي انها كانت مغرورة بجمالها الى حد الجنون ، ثم مرت الأعوام بها .. وفتحت عينها ذات صباح على الدنيا لتجدها قد اختلفت تماما عن اليوم الذي فات .. وأسفت كثيرا .. لكن ، مافائدة ان يحزن الأنسان ويأسف بعد ان يدمر نفسه بيده ..

وانتهى المصير بعمتي الى البقاء من غير زواج .

ومن غير رجل ..

وانا ..

هل اكون مثلها ..

ياالهي .. اشعر بأني ضائعة .. ضائعة في خضم هذه الدنيا الكبيرة المحيطة بي ، ابحث عن مكاني وسط الناس ثم لا اجد لي اي مكان بينهم .. وافكر .. تذبحني افكاري القلقة ، وتدمرني .. ثم اتأمل نفسي وانا اقف وحيدة في الدنيا لا اجد من يلتفت الي ليقول لي كلمات كالتي تقال في آذان الفتيات الأخريات اللواتي هن بعمري ..

واتحسر ..

وتذوب حفنة الأحاسيس في كياني الممزق .. المتمرد على الدنيا ..

وابكي ..

دائما ابكي حين اشعر باني ضعيفة تجاه هذه القوى المدمرة الزاحفة نحوي لتحيلني الى العدم ..

متى يأتي دوري .. ومتى يراني الرجال ويعطوني بعض حقي من نظرات الأعجاب .. ومتى تحس الدنيا بوجودي فيها ..

وطال انتظاري ..

انتظرت كثيرا .. اردت ان ارى الى اي مدى قد يصل الغباء بهؤلاء الرجال الذين يسدون اعينهم عن النور الحقيقي ويتبعون الوهج الكاذب .. اردت ان ارى متى ستتم معجزة المعجزات وتتفتح اعين هؤلاء علي ..

لكن ..

يبدو ان الأعمى لايمكن ان يفتح عينيه على العالم ، وحتى لو فتحهما فانه لن يرى الاشياء التي من حوله بوضوح الا بعد عمر طويل ، وحتى يأتي هذا العمر على عينيه ليرى بهما اكون انا قد انتهيت .

وابتدأت اخاف ..

وفعلاً . اخذت تنتابني حالات من القلق والخوف على مصيري الذي اتجه اليه .. واخذت احسب للأيام المقبلة الف حساب ..

ماذا سيحدث لو اني بقيت بلا زواج كل عمري .. ماذا لو تجاهلتني السماء واهملتني الدنيا .. حقا ، ماذا سيكون مصيري حينئذ ..

فتيات كثيرات غيري هن دون مستواي من الجمال والرقة والأخلاق، قد استطاعت كل واحدة منهن ان تشق طريقها وسط الرجال لتختار منهم من يناسبها فتتزوجه .. فوزية ابنة خالتي قد خطبها في الشهر الفائت احد اطباء الأسنان .. وفوزية ليست جميلة . جمالها اعتيادي ، ليس فيها مايثير الرجال ويجعل احدهم يسبق غيره لطلب يدها .. ومع ذلك ، فهي على وشك ان تنعم بالزواج ..

وغير فوزية تزوجت ..

وانا باقية من غير زواج ..

وسألت نفسي مرارا : ماالذي وجده هذا الطبيب المجنون في فوزية.. بماذا اعجب طبيب الأسنان هذا ياترى .. ماالذي استهواه فيها ..

لاشيء ..

والله لاشيء .. فليس في فوزية مايشجع اي رجل على الزواج منها ..

لـكن عقول الرجال ، لا ادري اين مكانها .. وحتما انها ليست في رؤوسهم ، والا لـكانوا على الأقل ينظرون من خلالها على الدنيا ليتعرفوا على التي تستحق ان يحلم بها كل رجل لتـكون فتاة احلامه وشريكة عمره ..

ثم ..

انفجرت الثورة في كياني ، واحرقت النار كل ما كنت اختزنه من الصبر في صدري ، واذابته في لحظة من لحظات الحقد والغضب في وجه الدنيا القاسية التي لا ترحم ..

وقررت ان اتحدى الجميع وابحث انا بنفسي عن الرجل الذى سيتزوجني ..

فكرة مجنونة .. اليست كذلك ..

لـكن ..

مالفرق بين ان يختار الرجل شريكة حياته وبين ان تختار الفتاة شريك حياتها .. مالفرق في عصر لم يعد فيه اى فرق بين الرجل والمرأة .. و .. اليس للرجل كما للمرأة من الحقوق والواجبات .. اليس هذا ما يقوله المجتمع ، وما يقوله القانون ..

لا تستغربوا ..

هذا الـكلام ليس من عندي ..

انه كلامكم انتم ..

مجتمعكم يقول هذا ..

قلت لنفسي : مادمت سأختار الرجل الذي سأتزوجه ، او يتزوجني . لافرق ، فعلي ان اتريث قليلا ، وابحث كثيرا ليكون اختياري في مكانه..

كيف اريده ان يكون هذا الرجل الذي سيتزوجني .

استعرضت فى الرأس عشرات الرجال الذين كنت احلم في يوم من

الأيام ان يكون واحدهم من نصيبي في الحياة .. استعرضتهم واحدا واحدا، وقلبت شفتي بامتعاض منهم جميعا ..

ليس في واحدهم من يشبع فضولي ويروى خيالي الواسع العريض واحلامي الكبيرة . .

ونقلتني اكثر من فكرة من مكاني الصغير الذي تخنقه الهواجس الرهيبة الى عالم الخيال الكبير حيث تغفو الأحلام الوردية الجميلة في سبات لذيذ ، وطفت برفق وحنان من حول الجنة الناعسة ونظراتي تتيه في كل صوب منها بحثا عن مكاني فيها . .

وطالت فترة احلامي ..

ثم ..

اعادتني الحقيقة المرة الى مكاني .. الحقيقة التي تنهش في كياني وتكاد تمزقني في كل لحظة من لحظات اليقظة ..

كيف تتزوج الفتيات .

سؤال يدور في الرأس . ويدور . ويدور ، ويلح على ان ابحث له عن الجواب .. وادور انا في حلقة مفرغة . لاشيء فيها .. لاشيء من حولها .. لاشيء ..

واعود خائبة ..

كيف تتزوج الفتيات ..

يعود نفس السؤال ليضرب على رأسي ..

متى يهدأ الرأس .

●

- ٢ -

ومرت الأيام ..

وحيرة تنقلني من حيرة ..

افكاري مشتتة .. موزعة في كل مكان ، لا اعرف كيف انقذ نفسي من هواجسي الرهيبة .. لا اعرف كيف اختار طريقي ..

اين طريقي !..

والمستقبل الذي يزحف الى عمري ليهبه في كل يوم من الأيام المزيد من الخيبة واليأس .. واكاد اجن . واتمنى لو ان قــوة عنيفة قد تقف لتصد زحف الأيام الى عمري .. لو تقف حــركة الكون .. لو ان الدنيا توقف مواصلة زحفها السريع لتمنحني القليل من الأمل في الحياة ..

في كل يوم يتضخم الخوف في قلبي ..

وتكبر خيبة الأمل في نفسي ..

واحتار الكل معي ..

وهم لايدرون السبب .. وانا لايمكن ان اقول لهم .. لايمكن ان اكون ضعيفة تجاه الناس .. تجاه الذين يعرفوني منهم ..

اريد ان ابقى قوية ..

قوية كما يعرفوني ..

واخذت احبس نفسي في غرفتي ، لا اغادرها الا قليلا .. وانقطعت عن

الخروج من البيت لزيارة صـــديقاتي واقاربي .. اصبحت غرفتي الصغيرة ملاذي الوحيـــد .. فيها آكل .. وفيها اقـرأ واطالع .. وفيها استقبل صديقاتي اللواتي يزرنني .. و .. تركت البيت كله لأمي التي لم يبق لها بعد موت ابي الا انا ..

وكنت اشفق عليهـا من الحالة التي تعيشها معي .. واحيانا كنت ابـكي لها كلما رأيتها وهي تتعذب للعذاب الذي انا فيه .. فأحاول ان ابدو امامها بحالة طبيعية . احاول ، وابذل المستحيل لأبدو امامها سعيدة ، ثم تخذلني الحالة اليائسة التي انا فيها ، واعود الى طبيعتي ..

واتركها للعذاب ..

و ..

تلك الليلة كانت رهيبة تماماً . ثقيلة ، وحـزينة .. حاولت ان انام ، تقلبت في فراشي وانا اغمض عيني لعلني انام قليلا ..

ولم استطع ..

افكاري القاتلة تتسرب دائماً من اماكن مجهولة لتغمر كياني كله .. نفس الافكار الثقيلة المرهبة ترقد في رأسي تبحث لها عن الحل لمتاعبي ..

وتطلعت الى الساعة الصغيرة المعلقة على الجدار ..

الثانية والنصف ..

لم يبق الا القليل ويتفجر الليل عن صباح جـديد .. ويوماً آخراً سيضاف الى عمري ليزيده يأساً و كآبة .. ويوماً جديداً يستعد ليسحبني نحو حافة الهاوية والشقاء ..

وتذمرت في مكاني ..

ثم ..

احسست بحركة خافتة تنم من وراء باب غرفتي المطل على الشرفة الصغيرة المطلة على حديقة البيت ..


MyR

رفعت رأسي بلا مبالاة الى مصدر الحركة الخافتة ..

و ..

رأيت رجلا يقف وراء الباب الزجاجي الذي يفصل مابين غرفتي والشرفة ..

وارتبكت الدنيا من حولي .. وارتعشت اوصالي كلها من الهلع والخوف .. احسست بالظلام يغمر كل المرئيات التي امامي .. واردت ان اصرخ، واستنجد بمن في البيت لينقذوني منه .. ثم تذكرت ان ليس في البيت غير والدتي الضعيفة التي ستزيد الموقف تعقيداً، ولن تستطيع ان تفعل اي شيء تجاه رجل ..

ودارت الدنيا بي .. ودارت عيناي تبحث في الظلام الذي يغمر الشرفة من الخارج عن وجه الرجل ..

وشعر الرجل اني قد رأيته في مكانه، فمد يده الى أكرة الباب يديرها بسرعة ثم دفع الباب ودخل الى غرفتي، فاعترتني حالة مخيفة من الظنون وانا اراه مقبلا مني، وقمت من مكاني وانا اجر اقدامي ببطء وتخاذل شديدين لأفر بجسدي من امامه ..

ثم ..

في لحظة سريعة لا ادري كيف مرت، كان الرجل قد قبض على يدي بكفه القوية ليسحبني من مكاني القريب من باب الغرفة اليه ..

وحاولت ان اصرخ لأستنجد بأمي .. لم اعد افكر الا ان اصرخ، وبصوت عال ليسمعني كل الناس اينما كانوا فيهرعوا لنجدتي من هذا الغريب، لكن يد الرجل الجمت فمي لتمنعني من الصراخ ..

وجحظت عيناي وانا انظر له بهما من خلال خوفي واختناق انفاسي في صدري المضطرب ..

وببطء وتراخي افلت الرجل كفه من فـوق وجهي وتمتم ووجهـه يرتعد من الخوف :

ـ ارجوك يا آنسة .. لا تخافي ..

استطعت ان افلت نفسي من بين يديه ، وابتعدت خطـــوة عنه ، ووقفت انظر اليه من خلال الخوف الذي يبتلعني .. وانتظر هو قليلا حتى هدأت اعصابه وقال بانفاس خائرة مسعورة وهو ينظر الي بتخاذل شديد :

ـ لن يصيبك اي اذى يا آنسة .. واني آسف لأقلاقك في مثل هـذه الساعة ..

جمعت انفاسي كلها ، وقلت بسرعة وانا ابتعد خطوة اخرى عنه :

ـ ماذا تريد ؟..

قال برجاء وهو يرنو الي في شبه توسل :

ـ لا شيء .. فقط ان احتمي قليلا عندك هنا في الغرفة ..

ثم واصل كلامه وهو يرى علائم الحيرة مقرونة بالخوف تملأ وجهي :

ـ اسمعي يا آنسة .. كنت في طريقي لزيارة صديق لي يسكن في الشارع المقابل لشارعكم .. لم اطرق الباب عليه .. وجـدته مفتوحاً ، فدخلت .. كان صديقي ملقى على الارض والسكين في قلبه .. وجدته مقتولا .. اصبت بحالة من الذهول وانا اراه جثه بلا حياة ، قلبته بيدي لعل فيـه نسمة من حيـاة .. ثم ، فجأة .. سمعت اصواتاً كثيرة تتم بالقرب مني فركضت .. تركته في مكانه وركضت لأنجو بنفسي من المأزق .. وصرخت امـــه .. ولحقني الناس ليقبضوا علي .. وازداد ركضي .. ثم استطعت ان اضيـع عنهم حين تسلقت الجدار المؤدي الى حديقة بيتكم ..

الحكاية كلها بدت لي غريبة . غريبة ومريبة تبعث على الشك والخوف والحذر معاً .. وقد اكون امام مجرم لم يمض على قتله لأحـد ضحاياه الا

دقائق قليلة، وقد لايتورع ان يؤذيني لوقت بما لا يرضيه ..

ماذا افعل !.. ماذا !..

حاولت ان افكر بسرعة .. وان اعمل بسرعة ..

وقال وكأنه قد قرأ افكاري المنهمرة من المخيلة القلقة على رأسي :

ـ قد لاتصدقيني يا آنسة .. لكن، انا نفسي غير مصدق لما حدث ..

تمتمت برهبة وانا احاول ان اتغلب على موجة الخوف التي تلفني :

ـ وماذا تريد ان افعله لك ..

ـ لا شيء .. لا شيء يا آنسة، فقط لو سمحت فسأبقى في الغرفة هنا بعض الوقت حتى تهدأ الحالة في الشارع ثم اذهب ..

ـ ولو لا اسمح .. هل ستترك الغرفة ..

قال ببرود وهو يرمق باب الشرفة المغلق :

ـ سأبقى ايضاً .. لكن، اتمنى لو تقدرين الظرف الذي انا فيه وتعذريني ..

سكت، ولم اقل شيئاً ..

وقال ايضاً وهو يشير لي الى احد المقاعد القريبة مني لأجلس فيه :

ـ تفضلي واجلسي .. اني آسف ..

جلست .

واختار له مقعداً قريباً مني ودفن جسده فيه ليريحه من عناء التعب بعد رحلة مفزعة من الخوف والقلق ..

ورفعت اليه عيني .. رمقته بنظرة سريعة .. نظرة فيها خوف وحذر، ثم عدت فاخفضت عيني عنه الى الارض .. وفكرت :

هل يمكن ان يكون قاتلا هذا الشاب .. هل يمكن ان يقتل رجلا .. غير معقول .. شيء لايمكن ان اتصوره ..

لايمكن ابداً ان اتصور ان من كان بمثله يقدر ان يذبح دجاجة .. لماذا لا ، وكيف استنتجت هذا .. لا ادري .. لكن ، منظره بوجه عام لايوحي لأي كان انه قد يفكر بالقتل .. وجهه فيه براءة اطفال في العاشرة .. كلماته المرتبكة لا تدل على انه قد يفكر بالقتل .. ملابسه .. ربطة عنقه .. ثوبه .. بدلته .. حذاءه .. كلها انيقة ، قد اختارها بذوق رفيع وارتداها كلها لتعطي الذي لايعرفه فكرة متكاملة ومتجانسة عن الرجل الجنتلمان ..

غير معقول ان يكون قاتلا .. غير معقول ..

وعدت فرفعت اليه عيني ..

والتقت عيني بعينيه ..

وابتسم لي بضيق وتمتم وهو يرمق الكتب والمجلات الكثيرة المبعثرة في كل مكان من الغرفة :

ـ هل تطالعين كثيراً !..

لم اشعر ان فى سؤاله اي فضول او تدخل في اموري الخاصة ، وقلت وانا اكاد ابتسم له :

ـ جداً .. افضل ان اقتل وقت الفراغ بالمطالعة ..

ابتسم ايضاً ، وقال وهو يقلب بعينيه عناوين بعض الكتب فوق الطاولة البعيدة عنا :

ـ يبدو ان اوقات فراغك كثيرة ..

ـ كيف !..

ـ استطيع ان استنتج بانك تقرأين كثيراً ..

ـ فعلا .. لكن ، كيف استنتجت هذا !..

ـ من كل هذه المجموعة الكبيرة من الكتب والمجلات التي تغرق غرفتك .. والمجلات اغلبها جديدة ..

مضت لحظات سريعة من الصمت علينا ، واردف وهو يقلب بيده احد الكتب :

ـ اما انا فأتمنى لو كنت استطيع ان اجد لي بعض الوقت لأقرأ . . اني اريد ان اقرأ . . اتلهف لمطالعة كل كتاب جديد ، لكن . . ليس عندي اي فراغ في حياتي . . كل دقيقة لها حساب في حياتي . .

بصورة تدريجية اخذت اتحرر من عقدة الخوف التي كانت تسيطر علي منذ دخوله الى غرفتي ، فقلت وانا ارمقه بعطف واتمنى لو ان عقلي يبعد شبح الجريمة عن رأسي :

ـ لكن ، في اعتقادي ان الانسان هو الذي يخلق وقته . . الا تؤمن بهذا ؟ . .

ـ اؤمن ، لكن هذا الذي تقولينه قد ينطبق على الذي يجد عنده المتسع من الوقت ويحتار كيف يبدده . . تصوري انا مثلا ، اشتغل في الصباح في مؤسسة تجارية ، ثم اذهب في المساء الى الكلية ، واعود من الكلية لأدرس ، وينقضي اليوم وانا لا اقدر ان اجد لي ساعة واحدة ارتاح فيها . .

ابتسمت برقة وقلت وانا اندفع معه في الحديث :

ـ في اية كلية تدرس ؟ . .

ـ الحقوق . . وسأتخرج منها هذه السنة . . وتصوري ، اية متاعب كانت ستعترض طريقي هذه الليلة . .

عادت مرة اخرى حالة الذهول لتستولي علي . . محامي . . محامي وقاتل . . محام متهم بقتل رجل . . هل اصدقه ! . .

اردف وكأنه يقرأ مايجول بخاطري :

ـ محامي ومتهم بقتل رجل . . اليس في الأمر غرابة . .

ـ منتهى الغرابة . .

ـ اجل . . منتهى الغرابة . . كنت وانا اركض في الشارع التفت الى الوراء فارى الناس تركض ورائي لتقبض علي افكر بالمصير الذي القتني الأقدار فيه ، ثم العن نفسي على الساعة المشؤومة التي خرجت فيها من بيتي لملاقاة صديقى المسكين . .

لانت نظراتي قليلا وانا ارى امارات الضيق تظللها مسحة من الحزن تغمر وجهه ، ولمحت بطريق الصدفة علبة من السيجائر على احدى المناضد القريبة مني ، فقلت له وانا امد يدى الى العلبة :

ـ هل تدخن . . تفضل واحدة لو اردت . .

قال بأدب وهو يرمق علبة السيجائر بيدي بلا مبالاة :

ـ شكراً . . لا ادخن ..

اعدت العلبة الى مكانها ، وقلت بلا تكلف وانا انظر اليه براحة واحترام كبيرين :

ـ انا ايضاً لا ادخن . . لكن احياناً تزورني فى غرفتي بعض الصديقات فاضطر الى مجاملتهن . .

اراد ان يتكلم ، ثم سكت فجأة . . تبادر الينا معاً اصوات اقدام سريعة وثقيلة تقترب من الغرفة ، فهب من مكانه ليقف على قدميه وانفاسه تتهدج في صدره من الخوف ، وراح ينظر الي وفي عينيه حيرة لا يدري كيف يبددها . .

وطرقت امي باب غرفتي طرقاً خفيفاً ، ونادتنى :

ـ ميادة .. افتحي الباب يا ابنتي . .

ارتعدت اعصابه ، وطفرت الدماء الى وجهه ، وراح يبحث بعينية عن اي مكان يختبيء فيه عن الطارق الغريب . .

وارتبكت انا الأخرى معه . . ماذا افعل ، واين يمكنني ان اخفيه عن امي . . اين !. .

نظرت اليه بخوف ، وخطرت لي فكرة سريعة ، فقلت له وانا اتقدمه مسرعة الى باب الشرفة التي اقبل منها :

ـ عد الى الشرفة . . انها امي ، وسأصرفها بسرعة . .

تبعني وهو يرمقني بحذر . .

وخرج الى الشرفة ، فأحكمت غلق بابها بالمفتاح الذي معي ، وعدت لأفتح باب غرفتي لأمي . .

ودخلت امي . .

وفاجئتني وهي تدفع الباب حال ان فتحته لها :

ـ هل سمعت ماذا حدث !. .

قلت وعيناي تتعلقان بالشرفة حيث يختبيء فيها الرجل الغريب وكل اوصالي ترتعد من الخوف :

ـ كلا . . ماذا حدث . .

قالت وعيناها تغفوان من التعب قليلا :

ـ لقد قتل رجلا في الشارع المقابل لبيتنا . .

اقشعر بدني ، وكأني اسمع هذا منها لأول مرة ، وارتعدت نظراتي الخائفة وهي تعود متسللة الى الشرفة لتطمئن عليه . . ثم عدت لأقول لأمي وقلقي يكبر في نفسي ولا ادري اي مصير يخبئه لي القدر مع هذا الرجل الغريب :

ـ كيف قتل !. .

ـ لا اعرف . . الناس تقول انه قد طعن بسكين في قلبه . .

سكين . . سكين ، يا الهي . . احسست بالغثيان ، ودار رأسي وهو

يكبت حيرتي منه وقلقي عليه ، وتمتمت وانا اجر انفاسي بضيق لأتنفس قليلا من الهواء :

ـ وفر القاتل !..

ـ بل قبضوا عليه ..

انهد كل حيلي مرة واحدة .. واحسست كأني كنت احمل في قلبي هموم الدنيا كلها ثم في لحظة تأتي من العالم الآخر قوة خارقة جبارة فترفع كل همومي وتقذف بها بعيدا عني الى لا رجعة .. وببطء، وتدريجيا ، لحظة اثر لحظة ، وبهدوء .. بمنتهى الهدوء اخذت استرد انفاسي ، تنفست قليلا ، وتنهدت بعمق وانا اشعر براحة لاحد لها منذ ان دخل الرجل الى غرفتي .. واستطاعت ابتسامة صغيرة ان تتوسد شفتي بعد فترة قصيرة ، وقلت لأمي وفرحتي بنجاته لاتسعني :

ـ حقا ..

قالت وهي تعيرني ظهرها لتخرج من الغرفة :

ـ اعترف القاتل واخذوه الى مركز الشرطة .. لاتنسي .. اغلقي الباب جيدا ونامي .. تصبحين على خير ..

وخرجت ، واغلقت الباب وراءها بسرعة وروحي تهيم تحت سماء كبيرة يظللها الأطمئنان .. وفرحتي بنجاته ترفع عن نفسي ذرات الخوف التي كانت تمتزج بشكوكي فيه ..

وعدت اليه لأفتح له باب الشرفة وفوق وجهي تبرق ابتسامة كبيرة.. و فاجئته وانا اعود امامه الى داخل الغرفة :

ـ لقد قبضوا على القاتل .. هل سمعت ..

لم يتغير اي شيء فيه .. بقيت مسحة الكآبة غامرة كل وجهه ، وحزنه لم يتبدد ، وحالته لم تتغير .. فقط خوفه كان قد خف قليلا ، وقال

وهو يمرر يده فوق رأسه ينهش بها شعره :

ـ المسكين ..

قاطعته وانا اطمئن اليه تماما :

ـ تفضل واجلس قليلا ..

جلس في نفس مكانه ، وعدت لأجلس في نفس مكاني .. قريبة منه .. ورفع الي عينيه المرهقتين .. كأنه يريد ان يشكرني بهما على مساعدتي له، ثم عاد فاخفضهما ، وقلت وانا ابتسم له فرحة بنجاته :

ـ هل تدري .. كنت بين ان اصدقك واكذبك .. لكن ، لا ادري ، كانت هناك اشياء كثيرة في نفسي تحاول ان تجعلني اصدقك ..

ـ اشكرك يا انسة .. ولا ادري كيف ارد لك ماقمت به نحوي ..

ـ اني سعيدة بانك لست قاتلا .. وهذا وحده يكفي لأن اكون مطمئنة ..

طأطأ رأسه ، وفترة قصيرة مرت علينا ونحن صامتين معا ، وعاد فرفع الي عينيه ، وابتسم ببرود وهو يقوم من مكانه ، وقال بارتباك :

ـ اني اشكرك يا انسة ..

كان يريد ان يذهب .. ان يعود من حيث اتى .. ان ينصرف .. ان يغادرني بعد ان عرفته ، وبعد ان حرك شيئا في قلبي اليه ..

وماذا يمكنني ان افعله في مثل هذا الظرف الشاذ .. وكيف يمكنني ان اشعره بحاجتي اليه .. بحاجتي الى .. الى .. الى صداقته مثلا ..

ومد يده الي ، ضغط على يدي التي مددتها له برفق ، ونظراته تقطر امتنانا بالجميل ، وابتسامته الكبيرة تغمر كل وجهه .. و .. انا واجمة ، قلبي يخفق من التعب في جوارحي ، ونفسي تتحسر على اللحظات السريعة التي تمر بي وانا لا اكاد احس بها ، واريد ان اقول شيئا .. اي شيء ..

مجرد كلمات قليلة اقذف بها اليه .. لـكن لساني يصيبه الشلل .. وشيء في جوفي يحترق .. النار تحرق الدنيا كلها من حولي .. تحرقني حتى الموت ..

ورددت شفتاه بخفوت وانفاسه تذوب في صدره :

ـ سأعود من حيث اقبلت لو سمحت ..

قلت له وانا اكبت قلقي المتزايد في نفسي من ذهابه :

ـ لو تبقى حتى الصباح فقد تستطيع ان تخرج من الباب ..

ـ اشكرك .. لـكن ، لافرق ، فقد تعودت على تسلق شرفات البيوت كما رأيت ..

وابتسم بحزن ، وبادلته ابتسامته بابتسامة رقيقة فيها يأس وحرمان ..

واحسسنا معا ، ومرة واحدة ، ان ايدينا لازالت متشابكة ببعض .. فارخيت يدي المقبضة على يده ، واضطرت يده ان تفلت يدي ، ونظر الي وشيء خفيف من الحياء يغمره ، وتمتم :

ـ مع السلامة ..

وقفت كالصنم في مكاني انظر اليه .. وسار ببطء وحذر نحو الشرفة ، والتفت الي وابتسم كأنه يشكرني للمرة الأخيرة عما ابديته له من مساعدة، ثم .. اختفى ..

وهرعت من مكاني صوب الشرفة لأراه آخر مرة ..

وكان قد حط قدميه على ارض الشارع بعد ان تسلق الجـدار الذي يفصل مابين حديقة البيت والشارع ..

وسار في الطريق .. لم يلتفت الى الاعلى .. لم يلتفت الي ليراني ، لم يكن يعلم باني قد خرجت من غرفتي الى الشرفة لأطمئن عليه اكثر ..

وتتبعته وهو يبتعد عن المكان ،وعني .. واخذطيفه يصغر ،ويصغر، ويصغر .. ثم اختفى في احدى المنعطفات .

-٣-

لم انم بقية الساعات المتبقية من الليل ..

جلست في فراشي افكر فيه ، واستعرض صورته الرائعة في خيالي ، وكلماته الدافئة ، و نظراته الخائفة من كل شيء .. وحركاته .. و.. و ..

فكرة اخذت تنقلني الى فكرة ..

هل يمكن ان اراه مرة اخرى !..

وتذكرت الكلية التي يدرس فيها ..

هل اذهب اليه في الكلية لأراه .. لأطمئن عليه .. لأرى ان كان قد عاد الى بيته سالماً ام اعترضه احد في الطريق وهو يعود في آخر الليل ..

و .. كل شيء اخذ يتبدل من حولي بسرعة مذهلة .. كل شي له غير المكان الذي اعتدت ان اراه فيه .. الدنيا كلها في تبدل سريع .. وقلبي يخفق في صدري ، كأنه يريدان ينطلق من القفص الصغير الذي كنت احبسه فيه كل هذا العمر ليرى الدنيا في تبدلها الجديد ..

وروحي تهيم تحت سماء رائعة لا حدود لها ..

واريد ان انطلق .. ان اطير .. أحس بنفسي خفيفة في دنيا لا وزن لها واريد ان اتحرر في لحظة من كل القيود التي تشدني بعالمي الصغير الذي كنت احيا فيه باوهامي القاتلة لأختار لي المكان الذي يناسبني فاقضى كل عمري فيه ..

والأرض لاتسعني ..

الأرض لايمكن ان تسع كل هذا الحب الذي يتدفق بعنف لذيذ من قلبي الصغير ..

وعمري خمسة وعشرون عاما ..

لا .. عمري بضع ساعات .. ربما ساعتين ، وانا احس بأني قد ولدت الآن .. قبل ساعتين فقط اتيت الى الدنيا ، ومن قبل لم اكن عائشة .. كنت وهما .. كنت خيالا .. كنت بلا روح .. بلا حياة .. بلا قلب ..

هل هذا هو الحب ! ..

والقيت بكل جسدي على فراشي ، واسترخيت في مكاني ، واحلامي الكبيرة لاتنقطع .. بل تتضخم ، وتتدفق كالسيل الجارف على قلبي فتغرقه بالحب حتى القمة ..

وخرجت من غرفتي في الصباح ، ورحت اطوف حول الغرف في البيت باحثة عن كل شيء فيها .. اتفقدها واحدة واحدة لأرى ماذا في كل واحدة منها ، وكأنني كنت ادخلها لأول مرة في حياتي .. وكأن البيت ليس بيتي وانا غريبة عن هذا المكان الذي اراه لأول مرة في حياتي ، واخذت اتأمل كل حاجة تقع عيني عليها .. ادقق في فحصها ، وانا خفيفة .. اشعر بأني اخف من اخف شيء في الدنيا ..

وطرقت باب الغرفة التي تنام فيها امي ..

وفتحت لي امي باب الغرفة وعلائم الدهشة تغرق وجهها ، ولم تصدق .. ووقفت تتطلع في بغرابة ، وببلاهة ، وتمتمت بصوت واطيء وهي تتلقاني بفرحة كبيرة :

ـ اهـلا .. اهـلا ..

ـ صباح الخير ..

ايضا لم تصدق عيناها ، وقالت وهي تميل علي وتقبلني في شعري :

ـ ماذا حدث للدنيا يا الهي !..

قلت بفرحة وانا اقبلها بحنان :

ـ لم انم طيلة ليلة امس ..

قالت بفزع وهي تضع يدها على صدرها :

ـ كنت خائفة ..

ـ كلا .. كنت اقرأ ..

كأنها لم تسمعني ، وواصلت بقلق :

ـ حكاية القتل التي حدثت اقلقتك .

ـ كلا .. حاولت ان انام ولم استطع .. كنت اشعر بالقليل من الملل..

قالت بحزن عميق وهي تتأملني بحسرة :

ـ يا ابنتي .. اخرجي الى الشارع قليلا .. اذهبي الى صديقاتك .. انظري الى نفسك في المرآة ، اليس من الحرام ان تضيعي شبابك بين جدران غرفة صغيرة ..

ابتسمت لها بحنان ، فأستطردت :

ـ كبرت واصبحت بحاجة الى الشمس .. الى ان يراك الناس .. تصوري ، ان اكثر جيران محلتنا لايعرفون ان لي ابنة بعمر الورود ..

كنت اعرف ماذا تريد ان تقوله ، وهي دائماً تكلمني بالألغاز البسيطة لتحاول ان تشعرني بما تريد ان تقوله ، وهي تعرف دائما باني اقدر على فهم الغازها بمنتهى البساطة ، لذلك لم تحاول ان تبدل طريقتها في الكلام معي حتى بعد ان كبرت واصبحت بهذا العمر ..

وجلسنا لأول مرة بعد اشهر كثيرة نتناول فطورنا معا حول مائدة واحدة بعد ان كان فطوري ينقل الي في غرفتي ، وكنت اجد شهية كبيرة



في الأكل .. اشتهيت ان آكل كل شيء كان على مائدة الطعام ..

وعادت امي لتقول وهي تلتهمني بعينيها الناعستين لتنقلني معها من حديث الى حديث وكأنها تخشى ان اتبدل في الغد واعود الى حالتي الأولى لذلك فهي تحاول ان تتكلم بسرعة ، وتتكلم عن كل شيء مرة واحدة :

ـ سامية ستتزوج في الشهر المقبل . هل عرفت ..

اجبتها وانا انشغل عنها بتناول قطعة من الخبز :

ـ يقال ان خطيبها غنيا ..

ـ اعطاها الله على قلب امها .. امها امرأة طيبة ، قاست كثيرا حتى اوصلتها الى هذا العمر ..

لم اجبها ، فقط هززت لها رأسي كأني اؤيدها فيما تقول ، واستطردت امي وهي تتأملني بزهو واعتزاز :

ـ وانت .. متى يأتي الدور عليك ويسعدك الله بأبن الحلال ..

اضطرمت الدماء في وجنتي ، واغمضت عيني عنها لئـلا ترى تبدل هواجسي وهي تعود الي بعد ان كدت انساها في لحظات ذابت فيها حفنة المخاوف في كياني لتتحول الى نسمات دافئة من الحب ..

وعادت لتقول ونظراتها تنصب على كل قطعة في كأنها تزنني لترى مقدار استحقاقي من الزواج ..

ـ الزواج يا ابنتي قسمة ونصيب .. وكل انسان يأتي دوره فيتزوج ..

كأني لا اعرف هذا .. كأني لا اعرف ان الزواج قسمة ونصيب .. لـكن ، ماذا تفعل التي لاقسمة لها ولا نصيب في هـذه الدنيا .. ماذا ..

كانت امي بالنسبة لي صديقة .. اكثر من صديقة ، وكنت اطمئن اليها دائما في مشاكلي ، وارتاح الى احاديثها ، واناقشها على انها ليست امالي وانما صديقة كبيرة .. اكبر مني ، ولها تجارب كثيرة في الحياة ، وكلامنا

تسوده الصراحة والجرأة دائما .. فقد عودتني منذ طفولتي على الصراحة في كل شيء .. لذلك، فنحن لانخفي اى شيء عن بعض، ونحاول دائما ان نحلل متاعبنا وامورنا الخاصة الى ابسط العناصر الخارجة عنها ونجد لها معا الحل .

ويوم ان مات ابي ، منذ اكثر من اربع سنين ، ترك لنا تقاعداشهريا يفيض عما نحتاجه لمعيشتنا ، وهذا البيت الذى نسكنه يعود الى عمتي نجيبة وقد اعطته لنا لنسكنه بعد وفاة والدي مساعدة منها لنا .. وهذه كلها جعلتنا نعيش عيشة طيبة بين الناس ..

وعدت الى غرفتي ..

وبقيت فيها ، لم اتركها طيلة اليوم .. كنت افكر .. واتأمل بعين حذرة قسمتي ونصيبي في الدنيا لأرى اين اقف انا منها في هذه الحياة ..

وقادتني افكاري اليه ..

وتغلغل طيفه الى كياني .. وكنت احس به معي .. معي في كل مكان، في رأسي .. وفي قلبي .. وفي غرفتي .. وبين اسطر الكتاب الذي رحت اقلب صفحاته من غير ان استطيع ان اقرأ كلمة فيه ..

كانت افكاري مشتتة ..

ومضى اليوم كله ..

ثم ..

قررت ان اراه ..

لم اعد احتمل البقاء اكثر في غرفتي وانا وحيدة .. لم يعد يكفيني طيفه .. لم تعد تكفيني الذكرى ، واريد ماهو ابعد من الذكرى ، وماهو ابعد من الخيال ..

اريده هو ..

وطال انتظاري له وانا واقفة على الرصيف الآخر من الشارع المقابل للكلية التي يدرس فيها ..

وتعبت ..

اتعبني الأنتظار الطويل .

كنت ارتدي فستانا ابيضا من الكتان ، وتقصدت ان اجعل من اول لقاء لي به بسيطا ، هادئا لايسوده التكلف ، لذلك لم افكر ان ابدو امامه كفتاة ذاهبة الى حفلة ليل .. وكلفني اختيار فستاني هذا وقتا طويلا ، فقد وقفت امام دولاب ملابسي حائرة ، لا ادري كيف اختار فستاني الذي سأذهب به اليه ، وقلبت بعيني كل فساتيني التي في الدولاب ووقفت اخيرا حائرة بينها جميعا .. حائرة لا اعرف ماذا اختار منها لأرتديه .هل ارتدي فستاني الدانتيل ، ام الساتان دى شيز ، ام الجيبور .. ام .. ام .. واحترت تماما ..

ثم توصلت الى آخر قرار لي ..

ان اكون بسيطة في اختيار الفستان الذي سأقابله به لأول مرة ، خاصة واني ذاهبة اليه في الكلية ، ومايرتدى في مثل تلك الأماكن يجب ان يبعث على الحشمة والتعقل ..

ومرة اخرى .. وقفت حائرة ..

اي عطر اختار لهذه المناسبة .. كريستيان ديور ، ام مدام روتشيه ، ام كابوجار ، ام .. ام .. ثم لم اضع شيئا منها جميعا ، وبقيت حيرتي معي حتى آخر لحظة وانا في البيت ..

اكتفيت فقط بان مسحت وجهي بالبودرة مسحا خفيفا ، ووضعت القليل من احمر الخدود فوق خدي الشاحبين فتوردا قليلا ..

واخترت حذاء فلات ابيض يناسب البساطة التي بدوت بها ..

وسرحت شعري الى الوراء ، ثم عقصته في ضفيرتين صغيرتين فبدوت بهما كفتاة صغيرة في سن المراهقة ..

وذهبت اليه ..

ووقفت انتظره ..

وطالت وقفتي ، والحركة خافتة من حولي .. لا احد يدخل من الباب الكبير المؤدي الى داخل الكلية ، ولا احد يخرج منه .. ولا ادري كم ستطول هذه الوقفة علي ، وقد تمضي ساعة .. ربما اكثر من ساعة على بقائي في هذه الوقفة التي تجعلني اذوب من الحيرة والقلق في اللحظة الف مرة .

و ..

لمحت اخيرا بعض الطلبة يغادرون الكلية من الباب الكبير الذي انصب من حوله كل احساسي ..

وتنبهت من حالة الملل التي كانت تسيطر علي ، وتركزت نظراتي كلها على الباب احاول ان ابحث من بين شقوقه عن اي اثر قد يقودني اليه ..

وخرج العدد الكبير من الطلبة ، ثم اخذت الحركة تخفت ، وعدد الطلبة يقل ، وبين فترة وفترة ارى احدهم ينفلت من الباب ..

واصابتني حالة من اليأس من ان لا اجده .

وتقريباً ، فقدت الأمل ..

ثم ..

رأيته فجأة ينسل من الباب الكبير الى الشارع ..

ودق قلبي برهبة وخوف على صدري .. وأحسست برعدة خفيفة تصعقني من الداخل ، وارتعش جسدي كله ، واضطربت عيناي ، وابتلعت ريقي بصعوبة .. ونظراتي منصبة على طول الطريق الذي يوصل مابينه وبيني وكأني افرشها امامه ليسير عليها الي ..

وعبر الشارع ..

ورآني ..

وعرفني بسرعة .. كأنه في اللحظة الأولى التي رآني فيها حاول ان يعصر ذهنه ليتذكرني ، ثم حالا .. في اللحظة الأخرى تذكرني تماما ..

وطافت حول شفتيه ابتسامة رقيقة وهو يدنو من المكان الذي اقف فيه ، وابتسمت .. لا ادري هل كنت ابادله ابتسامته بابتسامة مماثلة ام ان ابتسامتي جاءت لتخفف من كبر الفرحة التي غمرتني ككل في لحظة ، ثم .. كأني لم آت الى هذا المكان من اجل ان اراه هو بالذات فتلفت بسرعة الى كل الأتجاهات ابحث فيها عن اللاشيء لأبعد عنه احتمال ظنه باني قد جئت من اجله ..

وقال وفوق وجهه تنام فرحة هادئة بلقائي مرة اخرى :

ـ مساء الخير ..

قلت وانا امد يدي الى يده الممتدة نحوي :

ـ مساء الخير ..

ـ فرصة سعيدة ان يتكرر لقاؤنا ياآنسة ميادة ..

اذهلتني المفاجئة وانا اسمع اسمي تردده شفتاه ، وقبل ان استفيق من

حالة الذهول التي تملكتني لأرد عليه ، قال وكأنه ادرك سر ذهولي :

ـ اسمك يا آنسة آخر الاسماء التي قد انساها ..

قلت وحالة الذهول لاتزال ترسم خطوطها فوق وجهي :

ـ لكن . . كيف عرفت اسمي ..

قال ببساطة لاتكلف فيها وهو يطوي شفتيه بسرعة ثم يبتسم :

ـ سمعت السيدة امك تناديك به ..

ـ آه . . حقا ..

وعاد ليقول وهو منشرح الصدر لوجودي معه :

ـ لكن ، انت لاتعرفين اسمي ..

ابتسمت ، ورددت بنوع خفيف من الحياء :

ـ كلا . . لم اسمعه من احد ! ..

ـ اسمي صلاح . . صلاح ثابت ..

واستطرد بعد لحظة صمت قصيرة وهو يدير عينيه في كل الاتجاهات ثم يعود بنظراته الي :

ـ هل تنتظرين احد ..

تلعثمت الكلمات في جوف لساني ، وارتبكت قليلا ثم رددت بسرعة وانا انتزع كل كلمة من لساني بقوة :

ـ كلا . . كنت راجعة من بيت صديقة لي ووقفت بانتظار سيارة اجرة ..

قال وهو يحاول ان يزيل الكلفة التي تظلل الكلمات من حولنا :

ـ هل تسمحين لي ان اضع سيارتي تحت تصرفك ..

ـ كلا . . اخشى ان ....

قاطعني بلهفة وهو يدير عينيه في عيني كأنه يتوسل بهما ان اوافق :

ـ ارجوك . . دعيني اعيد اليك بعض ما قمت به من خدمة تجاهي . . ارجوك . .

اخجلتني كلماته الرقيقة بقدر ما افرحتني ، وقلت :

ـ مادمت تصر . .

ثم اضفت وانا الاخرى احاول ان اجرد كلماتي من صيغة التكلف التي اطليها بها :

ـ اخشى لو امتنعت ان تأمرني بالقوة كما حاولت ان تفعل . .

ضحك بحرارة وقال وهو يشير الى سيارته :

ـ تفضلي اذن من غير قوة . .

وصعدت الى جانبه في السيارة . .

لم اكترث لأي شيء وانا الى جانبه في السيارة . . بل كنت لحظتها قد نسيت كل الدنيا ولم يعد يشغلني من امــور الدنيا كلها الا امرنا معا ، انا وهو . .

وقاد سيارته بهدوء ونظراته الدافئة موزعة مابين الشارع الطــويل الذي يسير فيه وبينى ، وكان يحاول دائما ان يختلس لحظات سريعة ليراني فيها ، ثم يعود الى الشارع ليرى دربه فيه . .

وقال وهو يتمهل في القيادة عند بلوغه نهاية الشارع :

ـ اين ستذهبين يا آنسة . .

قلت بابتسامة كبيرة :

ـ الى البيت ، وانت تعرفه بالطبع ! . .

قال وهو يرد علي ابتسامتي :

ـ طبعا . . طبعا . . فقد زرته مرة من المرات . .

وعاد الى هدوئه . . ذلك الهدوء الذي يكسب صاحبه شخصية توجب

الاحترام ، ويجعلك تتشوق اليه دائما . . ونامت عيناه ببطء وتراخي فوق الشارع يطويه بسيارته ، وابتسامته الدافئة لازالت تتوسد شفتيه . . ابتسامة ثقيلة . . ثقيلة جدا ، لكن اتمنى لو تطول ابد الدهر . .

وقال وهو يعيد الي عينيه ليسترق مني نظرة اخرى :

ـ قد لا تصدقيني لو قلت لك ان ثقتي بالأقدار كانت اقوى من اليأس ، واقوى من ان تخيب ظني ، وكنت دائما . . في كل ساعة اعيد الى نفسي الأمل في اني سأراك مرة اخرى . . وفعلا ، فقد كانت ثقتي في مكانها . .

قلت وانا اكتم الفرحة التي في قلبي لئلا تفضحني امامه :

ـ ثقتك بالأقدار ! . .

قال :

ـ مامعنى القـــدر . . انه في رأيي الأحساس . . الأحساس العميق الذي يمتزج بكيان الفرد ليعينه على اكتشاف حياته على ضوء المستقبل . . ألم يصادفك يوماً ان تذكرت احدى صديقاتك وتمنيت لو رأيتها ، ثم . . ترينها فعلا في نفس اليوم . .

هززت له رأسي بالأيجاب ، فاستطرد وهو يرمقني بنظرة ذات معنى اذابني :

ـ نفس الحالة حدثت لي منذ يومين ، وتمنيت لو ان احساسي هـذا يعينني على فتح باب الدنيا امامي . .

كان يجب ان اتحرر قليلا من عقدة الحياء التي تشدني بقوة من مكاني لتمنعني من الاسترسال معه في الكلام . . وان امنحه القليل من الشجاعة والجرأة ليقترب بهما مني اكثر . . لكن ، لساني يرتعش ايضاً في داخلي ، وابقى امامه غارقة في بحر من الحياء والتردد . .

وتابع وهو يتأملني بلين :

- ثم رأيتك .. كنت على ثقة من اني سأراك ، ان لم يكن اليوم ففي الغد .. او بعده ، او بعد شهر .. ربما بعد سنة .. او اكثر ، لكني سأراك ..

قلت بخفوت وانا ارفع اليه عيني ونفسي تضيع في دنيا غائمة يظللها الخوف والقلق من كل شيء :

- ورأيتني اخيرا ! ..

- بعد يومين فقط ، وتصوري ! .. كم يحبني الله ..

- ربما كانت الصدفة وحدها هي التي جمعتنا ..

قال بقوة وهو يضغط على خزان البنزين بكل قدمه :

- كلا .. واؤكد لك ان هذا لايمكن ان يكون من صنع الصدفة .. ربما يكون من صنع القدر ..

- تقصد الاحساس ..

- اجل .. الأحساس .. ودائما احساسي لايمكن ان يخدعني ..

ومضت فترة اخرى من الصمت القصير بيننا ، ثم عاد ليقول فجأة وكأنه قد تذكر شيئا كان قد نسيه :

- ستقيم كليتنا بعد يومين حفلة تعارف صغيرة .. هل تقبلين الدعوة لو وجهتها لك ..

نظرت اليه من خلال الحيرة التي اخذت تلفني لحظة بعد لحظة وانا معه ، وواصل وهو يعيد الى الشارع عينيه :

- ام اصاب بخيبة امل كبيرة ..

قلت بارتباك وانا ادير وجهي الى الشارع لأبدد فيه بعض الحياء الذي اخذ يشل كل تفكيري :

- لا ادري ..

قال :

ـ ماهو الذي لاتدرينه ! . . ماهو ! . . اما ان تقبلي الدعوة واما ان ترفضيها . . وفي حالة رفضك لها سأحاول ان اعود اليك من غير طريق . .

اجبته وقلبي يخفق في جوارحي بشـدة وانا خائفة منه . . خائفة على قلبي ان يفضحني امامه ويعريني :

ـ ماهي الطريقة الاخرى . .

ابتسم براحة عميقة وكأنه ايقن اني موافقة على قبول دعوته ، وقال :

ـ لا اعتقد اني سأحتاج اليها الآن . . احساسي يقول هذا . .

ـ الا تتركني لأفكر قليلا . .

قال كأنه قد غضب :

ـ تفكرين بماذا . . الحكاية ليست حكاية تفكير بقدر ماهي حكاية ثقة . . فلو كنت تثقين بي فانك حتما ستأتين . .

قاطعته وانا انظر اليه بلين وابتسامة حارة تطفو على شفتي . .

ـ سأحاول ان آتي . .

ووصلت الى البيت . .

ودعته بابتسامة رقيقة ، ومنحني من بين شفتيه الدافئتين ابتسامـــة كبيرة لتعينني على الصبر كل اليومين الباقيين . .

ثم ذهب .

●

-٥-

نسيت مستقبلي .. نسيت حكاية العمر الزاحف من حولي ليطويني مع غيري من اللواتي لا قسمة لهن ولا نصيب في الدنيا .. نسيت مشكلتي الكبيرة التي كانت تضطرب في رأسي في كل ساعة لتمزقني .. نسيت افكاري المجنونة التي تدوخني .. نسيت .. نسيت كل شيء .. كل شيء ..

الا صلاح ..

لا .. لم انس كل هذا .. لم انس ، غير ان حبي الكبير ، وهذه المشاعر العنيفة التى استولت على كل جوارحي هي التى أنستني كل شيء ..

وعجبت للحب الذي يبدل في لحظة كل مشاعرنا ، ويغير نظرتنا للحياة ، وينسينا كل همومنا ومتاعبنا ، ثم .. يمنحنا هذه القوة الخارقة الغريبة ، ويجعلها تسري مع الدم في الجسد لتمنحنا المزيد من النشاط والحيوية ، ولتخلق في النفس النزعة الى كل خير ..

هل هذا هو الحب ..

حتما انه الحب ، إذ بماذا استطيع ان اعلل هذه الطفرة الواسعة في حياتي .. وبماذا يمكنني ان افسر هذه الانتقالة الكبيرة التى حملتني مابين يوم وليلة من عالم الظلام الذي كان يحتويني الى عالم كله من النور والضياء ..

هل يحبني صلاح ..

خاطرة سريعة مرت من سماء خيالي الذي يظلل كل الدنيا من حولي ، فوقفت امامها طويلا افكر . . واحاول ان اجد لها المكان الذي يناسب الحالة التي انا فيها . .

هل يحبني . .

لم استطع ان اقول لا . .

لم استطع ان اقول نعم . .

لم استطع . .

وبقيت حائرة . . وبقيت افكاري كلها معلقة مابين الشك واليقين . احترت ، وانتابتني الوساوس وخامرتني الف فكرة معتمة لتعيد قلبي الى مكانه في الظلام الذي كان فيه . .

ربما اكون قد تسرعت في تقدير موقف صلاح مني . .

لكن . . هل يمكن ان يلح الى حد ان اخذت تباشير الثورة والتمرد تلوح على وجهه لحظة ان دعاني الى حفلة الكلية وترددت . . ثم ، مامعنى نظراته الهائمة التي اتعبته من طول ماكان يبقيها معي وهو يكلمني . . ومامعنى ارتعاشة يديه وهما مقبضتان على مقود السيارة . . و . . اشياء كثيرة غيرها . . تصرفات كثيرة لم تكن طبيعية فيه ، ولا يمكن ان افهمها الا على انه كان يريد ان يراني مرة اخرى . . ومرة ثالثة ، ورابعة لأنه قد ابتدأ يحبني ان لم يكن قد احبني بعد . .

ثم . .

احساسه . . حكاية احساسه الذي لايمكن ان يخدعه . . احساسه الذي كان يقول له انه سيراني ان لم يكن اليوم ففي الغد ، او بعده ، او بعد شهر ، ربما بعد سنة . . ثم رآني . . لماذا كان احساسه يلح عليه . . لماذا يا الهي . .

الحب .. حتماً انه الحب ..

ولا يمكن ان يكون غير الحب ..

احساسي انا الأخـرى يقول لي انه يريدني .. انه يحبني .. انه .. و ..

ذهبت اليه بعد يومين من الانتظار وانا على احر من النار ..

كم وقفت امام المرآة وانا اتأمل نفسي فيها .. لا ادري .. ربما اكثر من ساعة وانا واقفة تتملكني الحيرة ويرتسم القلق والخوف على وجهي وانا انظر الى نفسي في المرآة .. ودخت وانا ابحث في فساتيني عن واحدا منها يناسب المناسبة ، ثم اخترت اخيرا فستانا من الكريب ، لونه ازرق غامق ، تنورته تصل الى فوق الركبتين بثلاث سنتيمات ، ارضيتها مقلمة بخطوط سماوية فاتحة ، وصدرها سادة تتوسطه ازرار زرقاء غامقة من نفس التنورة . واخترت حذاء ابيضا ارتفاعه خمسة سانتيمات ليجعلني طويلة قليلا وانا معه ، وابقيت شعري على نفس حالته الاولى .. سرحته الى الوراء ثم عقصته في ضفيرتين صغيرتين .. ولم اضع اي نوع من العطور ، كما لم اضع احمر الشفاه .. فقط وضعت قليلا من احمر الخدود فوق خدي الشاحبين فتوردا قليلا ، ومسحت وجهي بالبوردة مسحاً خفيفاً ..

وكان يقف عند باب الكلية بانتظاري ..

غمرت وجهه فرحة كفرحة الأطفال حين رآني اهم بالنزول من سيارة الأجرة اليه ، ثم تبددت فرحته بسرعة لتستولي عليه حالة من الذهول الشديد وهو يراني على غير الحالة التي رآني فيها منذ يومين ..

وهرع صوبي ليستقبلني وهو يمد يده نحوي ، وقال بلهفة كبيرة :

ـ اهلا .. لم افقد الأمل بالرغم من ..

قاطعته وانا انظر اليه براحة وفرحتي تكبر في كل لحظة وانا معه :

ـ هل تأخرت ..

ـ قليلا .. لكن لا يهم .. تفضلي ..

ودخلنا معا الى قاعة كبيرة صفت في كل مكان منها موائد صغيرة ، في واجهتها صالة صغيرة اشبه بالمسرح قد حجبت ماوراءها من الاشياء ستارة زرقاء كبيرة .. والطلبة منتشرون في كل مكان من القاعة .. شبابا وفتيات ، يضحكون مع بعض ، ويتهامسون فيما بينهم ..

ولم يحدث دخولي معه الى القاعة اي رد فعل عند اي من الطلبة ، او الطالبات .. كان كل واحد منهم قد انشغل بنفسه ، او بمن معه ، فارتحت كثيرا .. ارتحت جداً لأن ليس هناك من سيراقبني من الذين في هـذا المكان ، وارتحت اكثر للمكان الذي تضيع فيه صورة البنت على ان مكانها البيت دائما ..

واخترنا مكاننا بين الناس الذين يلتفون من حولنا على موائدهم .. وقال لي بهمس خافت وهو يسحب مقعده الى الوراء قليلا ويتطلع في وجهي باعجاب كبير :

ـ كيف ترين المكان ..

قلت وانا التفت من حولي بسرعة الى كل الجهات واعود اليه بعيني :

ـ رائع .. هل هؤلاء كلهم طلبة في كليتكم ..

ضحك برقة ، وتمتم وانامله تداعب حافة المائدة التي نجلس من حولها بعبث صبياني :

ـ كلا .. ربما لايزيد عدد الطلبة عن عشر هذا العدد الذي ترينه ، لكن .. الناس تعجبها المناسبات دائما ..

ثم صفق بيديه وهو يرى احد خدم البوفيه يمرق من امامنا ويتعدانا قليلا ، والتفت الي وسألني :

ـ ماذا تشربين ••

قلت وانا اخفي بعض ارتباكي عنه :

ـ هل يجب ان نشرب شيئا ••

ـ كلا •• لكن ، على الاقل يجب ان لا تردي طلبي للوهلة الاولى ••

قلت وانا ارد عليه ابتسامته الدافئة :

ـ اطلب انت اي شيء تختاره ••

ـ وانت ••

ـ سأشرب من نفس الشيء الذي تطلبه ••

ـ لكن ، ربما لا يعجبك الشيء الذي اختاره انا ••

اخفضت عيني عنه وانا احاول بكل طاقتي ان اتحرر من عقدة الحياء التي تستولي على كل حركاتي لتحيلني الى اشبه بدمية تتحرك كلما عبثت بنصبها اليد ••

وعدت اليه •• كان ينتظر الرد بفارغ الصبر ، وقلت :

ـ سيعجبني •• ماذا ستطلب انت ••

قال :

ـ هل يعجبك عصير الليمون ••

قلت :

ـ جداً . .

قال :

ـ نجربه اذن ••

والتفت الى الخادم وطلب منه قدحين من عصير الليمون ، ثم عاد الي ليقول بعد ان اصبح الخادم على بعد خطوات بعيدة منا :

ـ هل تدرين •• كنت قد قررت بيني وبين نفسي لو انك لم تأتي


MJR

لكنت اقوم بنفس ماقمت به تلك الليلة ..

ببراءة ، وسذاجة ، ونفسي تغرق في بحر من الحب ، قلت :

- اية ليلة ..

رد وهو يرمقني بنظرة فيها الف معنى ومعنى :

- الليلة التي تمنيت لو يعيدها الله علي في كل يوم ..

ثم اضاف وهو يبتسم بحرارة :

- لكن . . من غير قتل ..

واحسست على يده وهي تزحف ببطء وتراخي من مكانها لتقترب قليلا قليلا وبخوف وتردد نحو يدي ، وحاولت ان ابعد يدي قليلامنه .. ان اسحبها من نقطة التلاقي . . حاولت بكل قوتي ، لكنني لم استطع .. شيء في اعماقي نهاني . . وتوقفت يده في مكانها . . على بعد قريب من يدي وكأنها اصيبت بشلل فجائي فعجزت عن مواصلة رحلتها . .

ونظر الي ..

واخفضت عيني عن عينيه الجريئتين اللتين تحاولان التهامي مرة واحدة ..

وابتسم . . ابتسم بكل حرارة ..

ثم رمى بيده على يدي ..

وراحت انامله تعبث بظاهر كفي لحظات طويلة . . لحظات ممتعة بقدر ماهي مرعبة ، وانا لا اعي . . اخذتني النشوة . . كلا ، كان الخوف اكثر من النشوة . . وكانت حالة غريبة علي وتحدث لأول مرة معي ، لذلك . . فقد وقعت في حيرة من الأمر . . لم افكر . . لم اعد استطيع ان افكر ماذا افعل . . بل لم يكن هناك اي وقت للتفكير . .

ثم ، سحبت يدي بسرعة من تحت يده ، وابعدتها قليـلا عنه ، فقال

وهو يتطلع الي بحب كبير :

- ميادة ..

وسكت . كأنه اراد ان يقول شيئا ثم اعدل عن قوله في اللحظة الاخيرة ، وبقيت عيناه معلقتين بعيني لحظات طويلة ، ثم عاد فاخفضهما عني باتجاه يده وهي تتراجع مدحورة الى مكانها تحت المائدة ..

وسكت كل شيء من حولنا فترة من الوقت ..

الا قلبي ، وهذه الحفنة الكبيرة من العواطف العنيفة التي تنطلق من اعماقي لتحيل كل شيء امامها الى كتلة ملتهبة من النار .. نار لا تحرق ، لكنها فقط تدخل الدفء الى نفسي التي قتلها البرود كل عمرها ..

واعادني صوته الدافيء من سكوتي الطويل اليه في لحظة :

- بماذا تفكرين ..

رفعت اليه عيني ، كان يبتسم .. نفس ابتسامته الهادئة الثقيلة التي تمنح صاحبها الثقة والاعتزاز بالنفس ، وقلت بسرعة ونفسي تذيبها شتى الانفعالات :

- بلا شيء ..

قال كالواثق من اني افكر بشيء ولا اريد ان ابوح به اليه :

- لايمكن .. انت سارحة ، اذن فانت تفكرين ..

قلت كأني قد وقعت في الفخ الذي نصبه لي وليس امامي اي امل في الهرب منه :

- الا يحدث ان يسرح الانسان في عالم من الخيال يتأمل فيه اي شيء من غير ان يحاول تشغيل فكره به .. فقط يتأمل ولا يفكر ..

قال وكأنه يستدرجني ببطء حتى يوقعني في الفخ الذي ينصبه لي :

- قد يحدث هذا . هل يعني انك تعيشين الآن في غير عالمك ! ..

ضحكت .. اضحكتني الطريقة التي يحاول بها ان يجعلني استرسل معه في فضح نفسي والكشف عن اعماقي ، فقلت وانا اداعب حافة المائدة بسبابتي :

ـ هل ان كل من يحاول ان يفكر بعالم افضل يكون قد عاش في عالم غير عالمه ..

ـ بالطبع ..

ـ كيف ! .. انه نفس العالم ، لكن فقط يتمنى لو يتطور اكثر ..

ـ ان اي اختلاف قد يطرأ على اي شيء من الاشياء يكون قد غيره من الحالة الأولى التي كان عليها الى حالة جديدة تختلف تماما عن السابق . .

ثم نظر الي ، واستطرد وهو يبتلع ريقه بسرعة :

ـ ومادمت كذلك ، فهل استطيع ان اعرف ما الذي لا يعجبك في هذا العالم !..

ضحكت ايضاً ، وقلت وانا احاول الهرب من كلماته لئلا اقع :

ـ لم اقل انه لايعجبني .. لكن ، فيه امور كثيرة لا ترتاح اليها النفس ..

ـ مثلا ! ..

ـ اشياء كثيرة ، وكل انسان يعرفها تقريبا ..

ـ مثل ماذا ! ..

لم استطع ان اقف كجبل من الثلج امامه .. لم استطع ان اكون آداة جامدة لا حياة فيها يحركها القدر كلما اراد .. لم استطع ، فقد تحطمت اعصابي بما فيه الكفاية ، وكل شيء في يريد ان ينطلق من قمقمه الذي احبسه فيه .. كل شيء يريد ان يثور .. ان ينفلت من المكان الصغير الذي يختنق فيه ليرى النور .. ليرى ماذا في السماء .. وماذا في الارض ..

وتشجعت اكثر ..

تشجعت جدا ، ونظرت اليه بكل ماعندي من قوة ، ومن شجاعة .. اردت ان اكون جريئة لأول مرة في حياتي .. وقوية .. لذلك ، فقد حاولت ان استجمع كل قوتي لأضعها في لحظة واحدة تحت لساني ، وقلت :

ـ تصور .. ماذا يمكن ان يقال عني لو ان احد الذين يعرفوني يراني الآن وانا اجلس معك في هذا المكان حول مائدة واحدة ..

قال بلا مبالاة وهو يتطلع الى وجهي بقوة :

ـ ماذا سيقول .. اريد ان اعرف هذا منك انت ..

ـ انت .. ما الذي يمكن ان تتخيله ..

ـ سؤال واحد اسألك اياه .. هل تؤمنين انت بان العالم قد تحرر من الاغلال الرجعية التي كانت تكبل انفاسه في الماضي ..

ـ اؤمن .. ولكن ..

قاطعني بانفعال وهو يلقي بكلماته كالحمم على الدنيا ومن فيها :

ـ وتؤمنين بان العالم في تطور مستمر ..

ـ اؤمن ، لكن المجتمع لايؤمن بهذا ..

ـ المجتمع كاذب .. مخادع .. وربما سافل ..

ـ المجتمع قوي .. اقوى من اي فرد فيه ، لذلك ، فبأمكانه دائما ان يقيم من كل شيء الشيء الذي يريده ..

ـ لكن الجيل الجديد الذي يخرج الى الدنيا ينظر الى المجتمع بغير النظرة التي كان ينظر بها اليه الجيل الذي سبقه ..

ـ والمشكلة الكبيرة التي تواجهنا ان مجتمعنا لايزال يعيش بعقلية الجيل السابق ..

- لكنه يسير بسرعة الى تفهم عقلية الجيل الجديد، وسترين .. مع مرور الايام اما ان يموت هذا المجتمع في قلوب الناس وينتهي الى العدم واما ان يقتنع بنظرية التطور فيساير الجيل الجديد وينصاع الى متطلبات حياته .. وحينئذ، سترين ان الناس هي التي ستخلق المجتمع وتكونه ..

قاطعته :

- وحتى تمضي هذه الايام كم من الضحايا ستسقط في ارض المعركة !..

- التضحية ضرورية .. كل شيء لايقوم من غير تضحية .. لكن الذي يعوزنا نحن ليس التضحية بقدر مانحتاج نحن الى الشرف .. ناس لهم شرف ويعملون به .. ولكي نبحث عن عالم افضل لنا جميعا ومجتمعا ارقى من هذا الذي نحن فيه يجب ان نكون شرفاء ..

الشرف .. الشرف .. الشرف ..

هذه الكلمة تخيفني ..

تخيف كل فتاة .. تخيف كل الفتيات .. ولا تخيف الرجال ..

وكأن الشرف هذا ينحصر فيهن دون بقية عباد الله . الفتاة فقط يجب ان تكون شريفة .. طاهرة وشريفة، وان تحافظ على شرفها لتعيش بين الناس نظيفة لاتلوكها الألسن ولا تمزقها الحكايات ..

والرجل لا يحتاج الى هذا !..

الرجل دائما، في كل الحالات هو شريف ..

وقد تخطيء الفتاة مرة واحدة في عمرها، تزل، وتسقط، فيتلوث في لحظة هذا الذي اسمه الشرف فيها، ويعتبرها المجتمع امرأة ساقطة .. ساقطة في نظر الناس .. ساقطة في نظر الرجال الذين كانوا هم السبب في ان تكون غير شريفة ..

ثم تنتهي حياتها من المجتمع ..

ولو يخطيء الرجل ..

لو يخطيء الف مرة ، فماذا ستكون النتيجة . .

لا شيء . . لا شيء ، اؤكد لكم ان لاشيء يصيبه . .

المجتمع يقول هذا . .

المجتمع يريد هذا . .

مجتمعنا الشرقي هذا الذي يؤمن بان الشارب دائما هي التي يجب ان تسيطر وتحكم وتأمر . . ويستطيع الرجل دائما ان يحلق شاربه ثم ينميه حين تقتضي الحاجة اليه ، لكن المرأة لا تستطيع ان تتنازل عن عفتها ، وان فعلت فلن تستطيع ان تستردها . .

وهذه هي المهزلة . .

وستبقى هذه المهزلة قائمة مادامت حكاية الشارب هذه باقية ، وما دمنا نؤمن بها على حل قضايانا . .

كم استغرقت هذه التأملات مني من الوقت . . والى اي مدى كنت سارحة مع خيالاتي ابحث عن اشياء مفقودة فيها ولا اجدها . .

لا ادري . .

الذي ادريه اني احسست على نفسي وانا معه في السيارة وهو يقودها على مهل ليوصلني الى بيتي . . لا . . لا . . لم احس وانا معه في السيارة على نفسي . . كنت ايضا ضائعة . . ضائعة مع خيالاتي القلقة التي لاحدود لها . .

لكن الذي حدث ونحن في منتصف الطريق الى البيت ان اوقف صلاح السيارة في آخر احد الشوارع الفرعية . . بعيدا عن الضوء الشاحب الذي يطل علينا من فوق احد الاعمدة العالية . .

واطفأ محرك السيارة . .

وافقت على نفسي . .

وتطلعت اليه من خلال الظلام الشديد الذي يطوي كل شيء من حولنا .. ولم استطع ان اتبينه بوضوح . . كان الظلام يغطي كل شيء بستارة سوداء قاتمة ، مخيفة الى حد الموت . .

ثم ..

تنبهت على يده وهي تتسلل نحوي . . تقترب ببطء يصاحبها الخوف والتردد . . ويزداد اقترابها لحظة اثر لحظة . . ثم ، اصطدمت بي . . بصدري . . ثم انسحبت يده شبه مذعورة لتلتف حول خصري وتشده اليه قليلا . . ثم ، ازداد السحب . .

وتنبه كل شيء في . .

تنبهت كل اعصابي النائمة في سبات من الهدوء . . وتنبه قلبي ، وازداد وجيبه وتعالت دقاته على صدري . . وانفاسي تتلاحق . . وعيني تلفها غمامة من الظلام الشديد . . قلبي ايضا كان يسبح في بركة من الظلام . .

واستجمعت انفاسي المضطربة مرة واحدة ، وقلت وانا احاول ان ابعد نفسي عنه قليلا :

ـ صلاح . .

واقترب اكثر . . واكثر . . وكأنه لم يسمعني ، او لايريد ان يسمعني . . يريد فقط ان اسكت . . لكن انفاسه حارة ، وتكاد تخنقني ، وتسد علي كل الهواء ، واشعر بالضيق . . بالأختناق . . بالموت . . واريد ان اتنفس قليلا . . اريد المزيد من الهواء لئلا اختنق . . الهواء يا الهي :

ـ صلاح . . كلا . .

قال بانفاس لاهثة حارة يقذف بها صدره فوق وجهي لتحرق في

كل شيء :

ـ ميادة . . اني احبك . .

ـ ارجوك . . دعني . .

ـ احبك . . انت لاتعرفين الى اي حد احبك . . اني . .

دفعته بكل قوتي عني ، وصحت به بصوت حاولت ان اجعله مهذبا قليلا :

ـ كلا . . دعني ارجوك . . اتركني . .

وقرب شفتيه من وجهي يحاول ان يقبلني بها . . وابعدت وجهي عنه . . ابعدته بسرعة وبكل ماعندي من قوة . . لكنه كان أقوى . . ويداه قويتان جدا ، وقد التفتا من حولي بكل قوة صاحبها . .

وقبلني . .

مرة ، ومرتين ، وثلاث مرات . .

ودفعته ، وصرخت في وجهه وانا اكاد اختنق من لفح انفاسه الحارة التي تحرق اعصابي فتدمرها :

ـ اتركني .. الا تفهم .. اتركني ..

وانسحب من مكانه وهو يرتعد ، وسحب معه انفاسه اللاهثة ليبعدها قليلا عني ، وترك يده تسقط بحركة لا شعورية من حولي . .

وسكت . . ولم يقل اي شيء . .

وعاد ليقود سيارته . .

ومضت فترة طويلة من الوقت علينا ونحن ساكتين لا نتكلم . . وكل منا يريد ان يقول شيئا للاخر . . لكن ، لا نعرف كيف نقوله ، وتعوزنا الجرأة . .

وكدت ان اصل الى البيت حين التفت صوبي وتمتم بانكسار شديد وهو لايحاول ان يرفع الي عينيه :

- اني آسف لما حدث . .

لم اجبه ، فعاد ليقول واعصابه تنهار ببطء في كيانه الخائر :

- اني آسف . . ما كان ينبغي ان اعبر عن شعوري بهذه الطريقة المبتذلة . .

سكت ايضا ولم اجبه ، فعاد ليقول وهو يخفف من سياقته قليلا ليطيل الدرب الى بيتي :

- قلت اني آسف وانت لاتردين . .

قلت ببرود وانا احس بكل قلبي يتفتت لحاله :

- وماذا تريدني ان اقول ! . .

- لا شيء . . فقط ارجو ان لا اكون قد اغضبتك . .

واوقف سيارته في اول الشارع المؤدي الى بيتي ، وفتحت الباب لأنزل من السيارة ، فقال وهو يتأملني بحيرة والدنيا تظلم في عينيه :

- هل اراك غدا . .

التفت اليه ، لم استطع ان اطيل عذابه وعذابي اكثر ، وابتسمت له ، فاستطرد وهو يستعيد بعض قوته وهدوئه :

- سأنتظرك غدا قرب الكلية . .

تمالكت لهفتي الكبيرة وكبت النار التي تدغدغ قلبي لتمنحني المزيد

من الدفء ، وقلت :

ـ سأحاول . .

ـ الساعة الخامسة مساء . .

و . .

عدت الى البيت وكل الدنيا من حولي تغرق في الحب .

- ٦ -

ودخلت البيت تسبقني آمالي الكبيرة الممتلئة بالحب . .

كنت اريد ان اعبر عن فرحتي بأية طريقة . . بكل حركة ، بكل التفاتة ، بكل وسيلة . . الفرحة تكبر في قلبي . . ودائما تكبر ، وقلبي لايمكن ان تسعه كل هذه الفرحة ، واريد ان ارقص . . لا لشيء ، فقط اريد ان ارقص ، وارقص ، وادور مع الكائنات حتى ادوخ فأقع . . واريد ان املأ الدنيا ضجيجا . . لا لشيء ، واغني . . اغني باعلى صوتي لتسمعني الدنيا كلها . .

والتفت ابحث من حولي في البيت عن امي . .

ثم ناديتها بصوت واطيء وانا ادور من حول نفسي بحركة سريعة وكأني اريد ان ادور ، وادور بسرعة ، ثم ارتفع عن الأرض ، ثم احلق . . احلق بعيدا الى العالم الذي يرسمه لي خيالي . .

- ماما . . ماما . .

وانتظرت لحظة ، ولم يأتني ردها ، وعدت لأناديها بصوت اعلى قليلا وانا ابحث عنها بعيني في كل زاوية من الصالون :

- ماما . .

وجاءني صوتها من غرفتها ضعيفا ، خافتا يشبه الأنين ، فانهد حيلي كله

مرة واحدة، وهرعت اليها وانفاسي تضطرب من الخوف في صدري.. ورأيتها..

كانت مستلقية في فراشها، وجهها يلفه الشحوب، ونظراتها ذابلة تكاد تنطفيء في كل لحظة، وجسدها يرتعش من البرد، وانفاسها تلهث في صدرها..

وانحنيت على سريرها وقلبي يغوص في اعماقي من الحزن والخوف معا عليها، ومددت يدي الى يدها افركها لها بلين.. كانت يدها حارة.. حارة جدا، وكانت سارحة عني تماما، كأنها لم تشعر بوجودي معها في الغرفة، وانفاسها لازالت تتلاحق في صدرها، ونظراتها هي هي، ذابلة ذبول الوردة وقد نزعت عنها نسمة الحياة..

وقربت وجهي من عينيها المغمضتين وانفاسي تختنق في صدري، والدموع تغرق عيني، وهمست في اذنيها وانا اهز يدها برفق لتعي بوجودي معها:

- ماما..

لم تجبني، لكنها استطاعت ان تفتح عينيها قليلا، ورأتني، ثم ابتسمت لي ببرود من خلال اوجاعها لتطمئنني الى ان حالتها بخير، فقلت لها وانا لا ازال افرك لها يدها:

- ماما، ماذا حدث..

رددت شفتاها ببطء وارتخاء وهي تلتفت من حولها تنظر بعينيها الذابلتين الى لاشيء:

- متى عدت يا ابنتي..

لم احتمل اكثر..

لم احتمل كل تلك الأوجاع التي تريد ان تخفيها عني وانا احس بها

تنخر في كياني حتى تذيبه من الألم ، فتركتها تئن في مكانها وقمت لأتصل بالطبيب في التلفون ، ورجوته ودموعي تبلل كل وجهي ان يستعجل بالمجيء ، ثم عدت اليها . .

ورأتني وانا ادخل الى غرفتها ودموعي تبلل كل شيء من حولي ، فتمتمت من خلال انفاسها التي تخنقها :

ـ لماذا تبكين يا ابنتي . . لاتخافي . . تعالي واجلسي بقربي . .

جلست بقربها وانا اعد الثواني البطيئة لعل الطبيب قد يصل بعد قليل . . ومددت يدي الى يدها لأفركها لها . . حرارتها في ارتفاع . . ويدها تحرقني . . تحرق قلبي ، ونظرت الى عينيها النصف مغمضتين عن الدنيا ، وتمتمت وانا احبس الدموع في عيني واتمزق من الحزن عليها :

ـ هل تحسين بأي الم . .

قالت وهي تتألم من الوجع :

ـ وجع خفيف وزال يا ابنتي . .

ورن في تلك اللحظة جرس الباب فهببت من مكاني كالملسوعة من شيء اليه وقلبي يدق على صدري ليمزقه بسياط من الألم . .

واقبل الطبيب . .

وفحصها ، وطمأنني على ان حالتها لاتستوجب الخوف ، وانها تحتاج الى الراحة ، وكتب لي بضعة انواع من الأدوية على عادة الاطباء دائما ، وخرج . .

ومضى بقية اليوم وانا بجانبها احضر لها الدواء ، واعد لها طعاما خفيفا يناسب مرضها ، واسوي لها فراشها بين ساعة وساعة . . وكانت تفتح عينها بين وقت وآخر فأسألها عن حالتها فتطمئنني ، وكنت كلما احسست بالقلق اخذت يدها بيدي لأتحسس حرارتها ، او اعطيها مقياس

الحرارة ، وافرح حين اجد ان حرارتها في انخفاض دائم . .

وقضيت كل الليل وانا معها في غرفتها ، ساهرة لا يأتيني النوم بالرغم من التعب الشديد الذي اضنى جسدي ، وكانت تحاول ان تجعلني انام قليلا ، وتلح علي ان انام ولو لساعة واحـــدة ، فأسترخي في مكاني على احدى الأرائك في الغرفة واحاول ان انام . . ثم لا استطيع . .

واقبل الفجر . .

وانا صاحية . .

وقليلا قليلا ، اخذت صحتها تتحسن في اليوم التالي ، فمات الذبول في عينيها ، وعاد الى خـديها لونهما قليلا وزال عنهما الشحوب ، واستطاعت ان تجلس في فراشها وتتناول طعام الفطور الذي كنت قد اعددته لها . .

وكنت اتطلع اليها بحب وحنان كبيرين وهي تأكل طعامها ، وبين لقمة واخرى كانت ترفـــع الي عينيها وفيهادعوة عطف كبيرة ، وتتمتم وقلبها الكبير تغرقه السعادة لوجودي معها :

- لقد اتعبتك يا ابنتي . .

واحس بالمزيدمن الحب اليها ، واكبت الدموع التي توشك انتنطلق من عيني لتعبر لها عن ضعفي وعجزي لولاها ، ثم اسكت . . فقط اتأملها واتمنى من الله ان يبقيها لي الى الأبد . .

●

-٧-

الليل ثقيل ، ممل ، وكريه على الذين يحبون . . والبعد قاتل ، مدمر ، ومخيف على الذين تطويهم المسافات الكبيرة لتبعدهم عن بعض . .

وانا وحيدة . .

وحيدة ادور في غرفتي الموحشة ، حائرة مع نفسي التائهة في اعماق دنيا جديدة لم آلفها من قبل . . والليل في اوله . . وكل شيء فيه يبعث على الهدوء والسكينة . .

كل شيء الا قلبي ..

قلبي الضائع في خضم هذه الحياة يبحث فيها عن مكان له ليهدأ فيه قليلا ..

وتقلبت في فراشي ..

حاولت ان انام .. ان اسلم اجفاني للرقاد .. ان ارتاح قليلا من عناء التعب الذي ينهك كل قواي ..

ولم استطع ..

ليس من السهل ان يستطيع الانسان ان يسلم نفسه للنوم وهو في حالة قلق شديدة تثير فيه كل حواسه .. ليس من السهل ان يلم الانسان شتات همومه وحفنة افكاره المبعثرة في كل مكان من الدنيا فيدفنها مابين عينيه

ويسدل عليها اجفانه فيهدأ ٠٠ ليس هذا بالشيء السهل ٠٠

و ٠٠

ثلاثة ايام مضت وانا لم اره . .

ثلاثة ايام طويلة منذ ان رأيته آخر مرة ، وفي كل يوم من هذه الايام تتضخم الحيرة في قلبي ، وتنتابني هواجس مثيرة ٠٠ ودائما ، في كل ساعة ، في كل لحظة احس بأني مقدمة على تذويب عمري بمادة القلق ، واني اذوب بسرعة . . واذوب . . وكل شيء في يذوب بسرعة ليتحول الى الفناء الذي صنع منه . .

ومتى سأراه . .

متى اراه مرة اخرى لعلني قد استعيد بعض ثقتي بنفسي وبالقدر الذي بت اكرهه بقدر ما اخشاه . .

لا ادري . .

وامي هي السبب . . هي التي تقف في طريقي وهي لا تدري . . امي ومرضها ، ودور النقاهة الذي تمر به ، وليس من المعقول ان اتركها لوحدها في البيت واذهب اليه لأراه . .

وتركت فراشي . .

الأرق . . الضعف . . انحلال تام احس به يتسرب الى كل جسدي فيشل كل قطعة فيه . . الضيق من كل الاشياء المحيطة بي تجعلني اعيش كالمجنونة . . كل شيء في الغرفة يقلقني . . يعذبني . . يمزق لي اعصابي .

وعدت الى فراشي بعد ان تجولت في الغرفة فترة طويلة ابحث في الاشياء المحيطة بي عن سبب ضيقي وتبرمي من الدنيا . .

اريد ان انام . . ان انام ولو لساعة واحدة لعلني استطيع ان ابدد بعض قلقي الذي يدمرني . .

وتقلبت في الفراش ..

ثم ..

شيء في اعماقي التقط صوتا خافتا ينم من وراء الباب الزجاجي الذي يفصل مابين غرفتي والشرفة ..

وهببت فجأة من مكاني كالملسوعة من شيء وقلبي يضطرب في جوارحي من الرهبة والخوف ..

وتطلعت الى صوب الشرفة ..

ورأيته ..

وانهد حيلي كله وانا اراه يقف بلا مبالاة وراء الباب يتأملني ببرود ..

وقمت من مكاني اليه ..

كنت خائفة .. نوع غريب لم آلفه من الخوف تسرب الى نفسي ، وارتعش جسدي كله ، وساقاي لاتقويان على حملي ، كأنهما اصيبتا بالشلل ، واشعر بأني دائخة .. انقاد الى المكان الذي يقف فيه بلا وعي مني ولا ارادة .. مجرد اسير وانا مسحوبة باتجاه قوة عنيفة لتشدني اليه ..

وفتحت له باب الشرفة ..

لم ينتظر مني ان اقول له اي شيء ، وعاجلني وهو يدفعني امامه الى داخل الغرفة ويغلق باب الشرفة من ورائنا وانفاسه تلهث في صدره من شدة التعب :

ـ لماذا لم تأتي .. لماذا ..

تلعثمت الكلمات في جوف لساني .. كنت مرتبكة ، وقد خف خوفي قليلا ، لكن اشياء اخرى غير الخوف كانت تعقد لساني .. مجرد وجوده في غرفتي في هذه الساعة من الليل كان يقلق كل شيء في ، فقلت له وانا

ادور من حولي بعيني ابحث عن لاشيء :

- صلاح .

لم ينتظر لحظة ليسمعني . .

وانتزعني بكل قوته من مكاني ليطويني بين ذراعيه ، وتحركت شفتاه بسرعة لتنقض على شفتي مرة واحدة . .

وقبلني بحرارة . . بقوة . . بمنتهى القوة ، ولانت شفتاي وانا بين ذراعيه القويتين بعد ان كانتا صلبتين كالحجر ، باردتين برود الأموات ، وانفرجتا قليلا . . قليلا جدا لتضم بينهما شفتيه الحارتين الممتلئتين حياة . .

وتمتم بخفوت وانفاسه تضيع فوق شفتي لتمنحهما المزيد من الدفء :

- كيف تفهمين اني احبك . .

- صلاح . .

قال وهو يسكتني بقبلة اخرى طويلة :

- لماذا لم تأتي . لقد انتظرتك . انتظرتك حتى فقدت الأمل . .

سحبت نفسي من بين ذراعيه وانا احس بشوق للعودة اليهما في كل لحظة ، وقلت له وانا اهرع الى باب غرفتي فاقفله بالمفتاح خشية ان تأتي امي فجأة فتراه معي :

- امي مريضة ، واضطررت ان ابقى لجانبها كل هذه الايام . .

لانت قليلا نظراته ، وقال كأنه يواسيني :

- كيف هي الآن . .

- الحمد لله ، فقد زال الخطر عنها . .

قال وهو ينظر الى عيني بشوق كبير :

- لقد اقلقتني كثيرا . . كان يخيل لي وانت بعيدة عني كأن الدنيا

قد لفظتني من الحياة . .

قلت وانا اتحرر بسرعة من عقدة الحياء التي كانت تلازمني كلما كنت معه :

- كنت اريد ان اراك . وتمنيت لو اني استطيع ان اخرج ، لكن . .

قاطعني بلهفة وشوق كبيرين :

- ميادة . . انت لاتستطيعين ان تقدري كم كان القلق ينخر في قلبي ليذيبه في الشك القاتل في كل يوم يمر ولا اراك فيه . . لكني ابدا لم افقد الأمل . . بالعكس ، كان الأمل يملأ قلبي دائما فاحس بك وانت بعيدة عني قريبة من قلبي . . ودائما كنت اختلق لك العذر الذي يبرر عدم مجيئك . .

ابتلع انفاسه بسرعة واستطرد وهو يتأملني بحنان وحب :

- اني احبك ياميادة . . احبك . .

كنت اقف قريبة منه ، على بعد خطوة قصيرة منه ، حاولت ان اتجاهل نظرات عينيه الجريئتين اللتين يحاول بهما ان يلتهمني كلي مرة واحدة . . ولم استطع ، والتقت نظراتنا في نقطة قريبة منا . .

ومد يده بتراخي وهي ترتعد من اللهفة والشوق الى وجهي ليرفعه قليلا اليه ، وقال وانامله تغور في شعري تساويه برفق وحنان :

- ميادة . . عديني انك لن تتركيني ابدا . . عديني . .

لم ينتظر ان يسمع مني اية كلمة . . لم ينتظر ، وقرب شفتيه من وجهي ليلتقط بهما شفتي ويسكب فيهما ماء الحياة ليعينهما على البقاء ابد الدهر . . وقبلني . .

وقبلته اكثر من قبلة . .

انا الاخرى كنت بشوق ولهفة الى شفتيه لأطويهما بكل رقة الى

شفتي لعلهما قد تمنحاني المزيد من الاطمئنان والثقة بالدنيا . .

وتمتمت شفتاه وهما بين شفتي :

ـ عديني . .

انتظرت لحظة طـويلة حتى استطعت ان اسحب نفسي من بين شفتيه الدافئتين ، وهمست بخفوت وانا ارتعد من البرد في مكاني :

ـ احبك .

وعدت اليه .

●

و . .

تعلم الطريق الي . .

الطريق الى غرفتي . .

لم نعـد نلتقي في الخارج . . لم يعرض هو علي ان القـاه في مكان ما ، وبطبيعتي كفتاة فضلت ان لا اسأله . . انتظرت حتى اللحظة الأخـيرة المتأخرة من تلك الليلة التي زارني فيها ان يسألني اين سيراني في الغد . .

لـكنه لم يفعل . .

وعاد من حيث اقبل متسللا من الشرفة الى الشارع . .

و . .

في اليوم الآخر ، عاد الي . .

عاد الى غرفتي . .

لم يرضني ابدا تصرفه هذا . . كنت خائفة . . اخاف لو ان احـدا من الناس يراه وهو يهم بتسلق الجدار الموصل الى الشرفة فتقوم القيامـة في المحلة . . اخاف لو ان الناس تعلم بقصتي معه . .

و . .

ما الذي تملـكه الفتاة غير سمعتها في هذه الدنيا . .





وكيف سأستطيع ان اعيش وسط مجتمع همه ان يبحث عن الماضي وينبش ترابه ليدين حتى الموت كل من يكتشف انه قد سار في غير الطريق الطبيعي الذي قد رسمه له . .

حاولت ان اقول له هذا . .

بذلت المستحيل لكي افهمه بامري الذي بات يقلقني لعله قد يعذرني فيبحث عن غير هذا الطريق الذي يراني به . .

لكني لم استطع . .

انا الأخرى كنت كاذبة مع نفسي . كاذبة مع احاسيسي . . كاذبة ، وبقدر ما كان هو يريد ان يراني في كل ساعة كنت اتمنى انا لو يأتي في كل دقيقة ويعرض نفسه للمخاطرة ، ويعرضني للفضيحة . . والمهم ان يأتي ولتطبق السماء على الارض من بعد ذلك . .

كان مجرد وجوده معي يمنحني القوة ، والثقة بالنفس ، والأمان الدائم ، ويبعد عن نفسي الأشباح المخيفة التي تراودني في بعده عني . .

وكنت انسى نفسي وانا معه . .

انسى كل شيء اريد ان اقوله له . انسى الاساءة التي قد تلحقني من وراء مغامراته ، وانسى كل مخاوفي . . تزول في لحظة كل المخاوف من نفسي حين يكون معي ، فانسى كل شيء في الدنيا الا اللحظة التي انا فيها ومعي صلاح . .

ثم . .

بمرور الأيام صرت انتظره وانا على احر من النار . اعد الدقائق ، دقيقة بعد دقيقة ان طال وقت مجيئه ، وادور في الغرفة كالمجنونة ابحث في كل شق من شقوق جدرانها عن اي اثر له لعله قد يلهيني حتى عودته ، واذهب الى الشرفة واطل من وراء بابها على الشارع ابحث فيه عنه وانا غير

آبهة لمن يراقبني من الناس . .

ولم يعد يهمني ان يراه احدا من الناس وهو يتسلل الى غرفتي . .

وكنت اذا ما اقبل الليل اعد كل شيء فى الغرفة لأستقبله به . . واقفل باب غرفتي من الداخل بالمفتاح لأطمئن الى ان امي لن تستطيع ان تباغتنا ونحن معا ، وارتب المقاعد ، كل مقعد اضعه في مكانه ، وانقل المنضدة الصغيرة التي عليها المجلات والكتب قرب الأريكة الكبيرة التي كان يحب دائما ان يستلقي عليها ، واضع صحن الفواكه فوق منضدة اخرى ، واضعها في الجانب الأيسر من الأريكة ، قريبة منه ، واضع لي مقعدا بالقرب من الأريكة لأكون بجانبه . .

ويأتي صلاح . .

ويختار نفس المكان الذي اعددته له . .

ويمضي بنا الوقت . . يمضي بسرعة ، ونتمنى معا لو تطول الدقائق ، وتطول ، وتطول لنبقى معا كل عمرنا . .

ونقتل الوقت بشتى الطرق . . نثرثر ، ونأكل الفاكهة ، ونطالع في الكتب والمجلات ، ويحدثني عن نفسه ، وعن حياته في الكلية ، وعن آماله ومشاريعه الكثيرة بعد التخرج . واصغي اليه . . كل شيء في كان ينصت اليه . .

وحبي يزداد اليه في كل ساعة . .

وتلك الليلة ، كنت سارحة افكر . . وصلاح معي في الغرفة يقلب احدى المجلات بعبث صبياني من غير ان يقرأ شيئا فيها . .

وانتابتني موجة من الخيالات . . وفكرت :

ما بعد هذا الحب الذي نعيشه انا وصلاح . والى اين سيقودنا . .

وكنت حائرة . . لا اعرف بماذا افسر كل تلك الخيالات . .

اني اعرف ان الحب هو التقاء قلبين اقبلا من مكانين بعيدين ليتحدا معا بعد ان اتعبهما البحث الطويل عن الحياة ، وانهما استطاعا معا ان يخلقا دنيا جديدة لهما ليعيشا بقية العمر فيها . .

وبعد الحب تهب نسمات خفيفة من القلق سببها الخوف من ان يدبر لهما القدر احدى الاعيبه فيحطم في لحظة كل امانيهما في الحياة ، وقد يخنق حبهما ويميته الى الأبد . لذلك ، ليس امامهما غير ان يصارعا القدر حتى يتغلبا عليه . . كيف . . كيف . . كيف . .

ماذا نفعل . .

كيف نتغلب على القدر . .

وانتبه صلاح على شرودي عنه ، فمد يده الى يدي يدعكهما بلين فرفعت وجهي اليه ، كان يبتسم بحب كبير ، وتمتم بحرارة وهو يتأملني بوله :

ـ مالك . .

قلت وانا اقترب من المكان الذي يجلس فيه وكأني اريد ان احتمي به من القدر الذي ابتدأ يخيفني :

ـ صلاح ، اني خائفة . . خائفة . .

ـ حتى وانا معك ياحبيبتي ! . .

ـ خائفة من الأيام ياصلاح . .

سحبني اليه برفق ، وانسلت انامله الى شعري لتداعبه بحنان ، وتمتم :

ـ يالك من مجنونة . . انت تنسين دائما ان حبنا العنيف هذا لا يعرف معنى للخوف . .

ـ اني خائفة من الحب . . خائفة ، افكر دائما ، الى اين سيقودنا هذا الحب . . اخاف ان افتح عيني في يوم ولا اجدك معي ، وقد اقتل

نفسي لو افقدك . .

- الله يحبنا ولن يفرقنا ابدا لأننا نمنح الدنيا الحب . .

نظرت اليه . .

كنت اريده ان يفهمني ان يفهمني اكثر . .

لكنه لم يفهم . . لم يستطع ان يفهم ماذا كنت اريد ان اقول له ، وقال بهمس خافت وهو يطويني الى صدره ويدفن وجهه في شعري :

- انت لي . . لي حتى الموت ، ولن تستطيع قوة مهما تكن ان تأخذك مني ياحبيبتي . .

واندفعت اليه . .

وتعلقت شفتاي بين شفتيه وقتا طـــويلا . كنت احس بالظمأ يحرقني . . يعذبني ، وكنت اريد ان اروي عطشي . .

وعاد ليقول واناملة تضغط على شعري بقوة :

- حبيبتي ..

ثم سكت ..

●

تأخر الليل ولم يأت صلاح . .

وانتظرته ، والقلق يرسم على قلبي الف صورة مخيفة . . ومخاوفي تجسد لي الأشياء الصغيرة على انها اكبر من اني استطيع تقديرها . . ودقات الساعة الصغيرة المعلقة في الغرفة تثيرني اكثر . . ويعلو صوتها ، ويعلو . . كأنها تسخر مني وهي تذكرني باني مازلت نفس تلك الانسانة الضعيفة في عالم الأقوياء ، وان اية قوة مهما تكن ضئيلة قد تدمرني في لحظة لو شاء القدر . .

وقمت من مكاني الى الشرفة .

وبحثت بعيني في الشارع عنه . .

في كل لحظة اكاد احس انه في اللحظة المقبلة سيكون معي ، وانه حتما في طريقه الي . . وانه . . وانه . .

ومضى الوقت . .

اوشك الليل ان ينتصف وهو لم يأت . .

واصابني اليأس . .

وانهالت الهواجس المثيرة لتغزو رأسي . . الف خاطرة راحت تلعب بي وتتقاذفني بلا رحمة . . تماما ككرة صغيرة وقعت بين اقدام ثقيلة لاترحم . .

و . .

رأيته . .

من بعيد ، من ابعد ابعاد الدنيا استطعت ان اراه وهو يتجه مسرعا باتجاه الجدار الذي اعتاد ان يتسلقه ليقوده الى غرفتي ، وكان خياله الطويل يسبقه في شق قلب الارض ليمهد له الطريق الذي يوصله الي . .

وعدت الى داخل غرفتي وقلبي يكاد يطير من اللهفة والشوق اليه ، وخوفي اخذ ينزاح ببطء من نفسي . . واخذت اعد اللحظات على دخوله . . في كل لحظة اشعر بانه يقترب اكثر واكثر مني . .

و . .

دخل . .

وهرعت اليه لأدفن كل نفسي الضائعة في بحر من المتاعب بين احضانه ، وقلت له وانا احس بمنتهى الأمان وانا بين ذراعيه :

- تأخرت ، وابتدأت اخاف . .

طواني الى صدره ، ومد يده الى وجهي ليرفعه قليلا اليه ، فالتقت نظراتنا معا في نقطة قريبة جدا . . وتمتم ونفسه تطير من الفرحة :

- ميادة . . ياحبيبتي ، آه لوتدرين . . لقد انفتحت لنا ابواب السماء منذ هذه اللحظة . . ميادة . . ميادة .

كانت انفاسه مضطربة تماما . .

وكل شيء فيه مضطرب . . كل شيء ، وابتسامته الكبيرة ترسم على شفتيه اكثر من سر . .

وانتظرته حتى يهدأ قليلا ، وقلت له وانا ادفن رأسي في صدره الذي تعذبه ضربات قلب عاش كل عمره بين جدران سميكة لايعرف معنى الانطلاق :

ـ مالك !..

قال وهو يدور في الغرفة يبحث فيها عن الاشياء وكأنه يراها لأول مرة :

ـ كيف تريني الآن !..

قلت وانا محتارة من امره ، لكني سعيدة لفرحته :

ـ لا ادري .. انت اليوم غير صلاح الأمس .. ما الذي غيرك بهذه السرعة ..

سحبني اليه .. سحبني من شعري اليه ، وغار بشفتيه على شفتي يقبلهما بنهم وجوع شديدين ، وشدتني ذراعاه بقوة اكثر ، وانفاسه عادت لتتلاحق مسعورة في صدره ، وقلبه يخفق فى جوارحه بكل ماعنده من قوة ، وتمتم بخفوت :

ـ اصبحنا اغنياء ياحبيبتي .. اصبحنا اغنياء واقوياء ، ولن تخيفنا بعد اليوم اية قوة مهما تكن .. اصبحنا اقوياء ، ولن ننتظر بعد اليوم ان يمنحنا القدر ما كنا نتمناه .. كلا ، بل سننتزع كل الاشياء التي نريدها بالقوة التي معنا ..

لم افهم ايضا ، وسحبت نفسي ببطء منه ، وكل شيء يدور بغموض من حولي .. كل الاشياء تدور في مدارها ، وانا كالبلهاء اقف امامه ، واتطلع في وجهه ..

واستطرد وهو يتأملني بحنان كبير وقلبه يذوب من الحب بين جوارحه :

ـ مات عمي .. مات ، وورثت عنه كل امواله .. ورثت كل شيء كان له ..

قلت بحزن عميق كأني اواسيه :

- كيف مات . .

- اللعنة عليه . . كان بخله يسبب لي متاعب كثيرة ، لكني صبرت . . كنت اعرف ان لهذا الصبر من نهاية . . كنت اعرف انه سيأتي اليـــوم الذي تنتهي فيه حياته من على هذه الارض لتبدأ حياتي فيها . .

ومد يده الى جيب بنطلونه ، واخرج منه علبة من السيجائر ، فتحها بارتخاء وتناول منها واحدة وقدمها لي وهو يبتسم :

- سيجارة . . خذي لك واحدة . .

تطلعت فيه برهة وجيزة . .

ماله . . ما الذي اصابه ، وكيف تبدل بهذه السرعة . . هو يعرف اني لا ادخن السيجائر ، وكان لشد مايضايقه ان يجد علبة سيجائر في غرفتي . .

وقلت له وانا اتغاضى عن السيجارة التي في يده :

- لماذا تريد ان تدخن . .

ضحك بـكل شهيته للضحك ، وقال :

- لا ادري . . لازلت اكـره السيجائر ، لـكني فقط اضعها في جيبي من اجل ان اقدم منها للأصدقاء . .

وعاد ليدور في الغرفة ويبحث في الاشياء وكأنه يراها للمرة الاولى ، ثم التفت صـوب الساعـة المعلقة على الجـدار وتأملها بلا مبالاة ، وعاد الي وقال :

- تعالي ننطلق من هذا المكان الى الدنيا . .

قلت وانا مازلت حائرة منه ، ومن تصرفاته الغريبة :

- الى اين ! . .

- فلنذهب الى اي مـكان نجد فيـه مايريحنا . . مجرد ان نبتعد عن هذه الغرفة التي تخنقنا . .

قلت بحيرة يمازجها القلق وانا لا ادري ماذا اقول ولا كيف اتصرف :

ـ في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ! . .

قال وهو يلفني بذراعيه ويداعب شعري بانامله :

ـ الليل . . الليل . . تأكدي ان السهر لا يحلو الا بعد منتصف الليل . . لكننا نحن لم نجربه ، لذلك لا نعرف طعمه . . وغيرنا ، كل الناس لا يحلو لها السهر الا في الليل . . في آخر الليل لأنه يبعث على الدفء ، وعلى الحب . .

قلت كأني اتوسل اليه ان يبقى معي في الغرفة ويعدل عن فكرة الخروج في مثل هذا الوقت :

ـ لكن . . كيف استطيع ان اخرج من البيت . .

ـ تستطيعين . . اؤكد لك انك تستطيعين لو اردت . .

ـ انت نسيت ان امي معي في البيت . .

قاطعني بلهفة وهو يمرر يده حول رقبتي ويسحبني قليلا اليه :

ـ لن تعرف . . سنذهب ونعود من غير ان تعرف . .

ـ لكن . . ماذا اقول لها لو جاءت الى غرفتي ولم تجدني فيها . . صلاح . .

قاطعني وهو يرفع وجهي اليه ويتطلع في عيني بشهوة عارمة :

ـ ميادة . . ياحبيبتي ، طاوعيني . . انت لا تعرفين كم اتمنى ان امنحك السعادة والفرحة بعد ان منحت قلبي كل هـذا الحب الذي رفعني من عالمي الصغير ليضعني في عالم اوسع من ان احتمل العيش فيـه بمفردي . . اني احبك ياميادة . . احبك . . الا تفهمين . .

ـ صلاح ، اني خائفة . .

ـ الا يهمك ان تسعديني ولو مرة واحدة في العمر . .

- يهمني .. وانت تعرف، اني لا يهمني من الدنيا كلها الا سعادتك ..

- وتتمنين ان نبقى معا كل العمر .

- كل العمر ..

- اذن، سنذهب ، وسنطوف من حـول الدنيا كلها بسيارتي .. سنذهب الى اي مكان .. الى كل مكان نرتاح اليه ..

وقرب شفتيه ببطء من وجهي المرفوع اليه ، وكانت احـدى يديه تسحبني قليلا قليلا من مكاني لتقربني منه اكثر ، ولفتني يده الأخرى برفق الى صدره ..

وقبلني بحرارة .. بقوة .. بجنون ..

وتعلقت شفتاي بشفتيه بكل قوة لا تريد ان تنفك عنهما ابد الدهر ..

وتمتم لي من بين شفتيه المضطربتين :

- آه لو تعرفين كم احبك ياحبيبتي ..

تمتمت بارتخاء ونفسي تذوب النار التي تحرقني :

- قبلني .. فقط قبلني ..

وقال وهو يسحب شفتيه بكسل من بين شفتي وانفاسه تتمزق في صدره من التعب :

- فلنذهب ..

قلت وانا اوافقه بسرعه ضاربة كل شيء قد يعترض طريقي عرض الدنيـا :

- نذهب مادمت تصر ..

و ..

لم ينتظر ، اطفأ النور في الغرفة ، وسحبني من يدي ليقودني معه الى الشرفة .. وتحسست طريقي في الظلام وقلبي يرتهب من الخوف ..

الخوف من المغامرة ..

وقلت له وانا انظر من الشرفة الى الشارع المظلم وكأني اراه لأول مرة ، وارى عمق المسافة التي تفصله عن شرفة غرفتي :

ـ صلاح ، لن استطيع ان انزل من هنا . سأقع حتما ..

قال وهو يضغط على يدي قليــلا ليشجعني على خــوض التجربة القاسية معه :

ـ لا تخافي .. فقط دعيني انزل قبلك ، ثم انزلي انت من بعدي على نفس الطريق الذي سأسلكه ..

ـ اني خائفة ، يا الهي .. خائفة ..

ـ وانت معي لا يجب ان تفكري بالخوف ابدا ..

ـ لكن ، ماذا لو يرانا الحارس .. ماذا سنقول له لو رآنا ..

ـ فكري بكل شيء في حينه ..

سكت ، ولم اجادله ..

ادركت ان مجادلتي له لن تثمر بنتيجة ..

و ..

استطعت ان انزل معه الى الشارع من كل هذا العلو بسهولة لم اصدقها انا نفسي .. ولا ادري كيف حدث ذلك .. لا ادري ، لعل خوفي من ان يراني الناس والحارس الليلي قد قتل في نفسي الخوف من السقوط فاستطعت ان احمل جسدي على النزول به الى الشارع ..

وكانت سيارة صلاح تقف في مكان يبعد قليلا عن بيتي ..

وصعدت معه الى سيارته ..

وقلت له وانا التقط انفاسي الحائرة ونظراتي تتيه في كل صوب من الشارع تبحث فيه عن اي اثر للناس :

ـ اني خائفة . . خائفة ياصلاح ، فماذا افعل . .

ضحك بصوت خافت وهو يضغط بقوة على مستودع البنزين والسيارة تنطلق بنا بكل جنونها لتمزق وجه الارض في لحظات :

ـ انت معي . .

ـ خائفة لأني معك

ـ من الناس ! . .

ـ اجل . .

ـ اللعنة عليهم كلهم . . انت معي ياحبيبتي . .

وغمرتنا برهـة من السكون المخيف ، وعاد ليقول لي وهو يتلفت في الشارع ليبحث فيه عن طريقه :

ـ فلنذهب الى الأمباسي . . مارأيك . .

ارتعدت اوصالي كلها من الخوف . وقلت له بتوسل شـديد وانا اتطلع فيه واتمنى لو يقدر موقفي :

ـ كلا . صلاح ، لا استطيع .

ـ لكن لماذا ياحبيبتي ! . .

ـ الناس ياصـلاح . . اني لا استطيع ان اجلس في مكان ما بين الناس في مثل هذه الساعة من الليل . .

ـ لـكن ياحبيبتي . .

قاطعته ونفسي تذوب في الخوف مما يريد ان يقوم به :

ـ لو يراني الناس وانا معك فماذا سيقولون عـني . . صـلاح ، حاول ان تفهمني ارجوك . .

قال بتذمر وكأنه يأسف على دعوته لي :

ـ اني آسف . . اين تريدين ان نذهب . .

قلت بانكسار وانا حزينة لحزنه :

ـ نبقى في السيارة . .

ـ و . .

ـ الا يعجبك ان نبقى في السيارة معا . .

قال وهو يبطيء قليلا من سرعة السيارة :

ـ كلا . . لكن ، مادمت ترغبين في هذا فاني لا استطيع ان اخالف امرك . .

ـ هل غضبت . .

ـ كلا . .

ـ صلاح . .

رفع وجهه الي ، وبقيت نظراته معلقة في الشارع ، وقال بلا رغبة منه الى الكلام :

ـ افندم . .

ـ يجب ان تقدر موقفي ياصلاح ، وتعذرني . .

ـ معك حق . . اني آسف . .

وسكت .

كان يفكر . .

وسكت انا الاخرى . .

كنت اتأمل الدنيا من خلال نافذة السيارة وهي تسير بنا . .

هذه الدنيا الكبيرة ، الواسعة . . ترى ، ماهو نصيبي فيها . .

●

كم مضت من الايام الطـويلة علي وانا واقفة في الشـرفة انتظر مجيئه الي ٠٠ وكم من الايام القاسية مرت علي وانا اكتوي بالنار التي لا ترحم وقلبي تمزقه الأحزان الثقيلة ٠٠

في كل مرة ٠٠ في كل ليلة اقف في الشرفة لأنتظره ، وتمضي الساعات .. ساعة تطوي الساعة التي قبلها ، وينشق الليل عن فجر جديد ، ثم يصيبني اليأس من مجيئه فاعود الى غرفتي لأدفن دموعي في الوسادة ٠٠ واتعب .. يتعب كل شيء في من الانتظار ٠٠

وانتابتني هواجس شتى ٠٠

لماذا لم يأت كل هذه الأيام ٠٠

اريد ان اعرف لماذا ٠٠ اريد ان اعرف ٠٠

اني لا استطيع ان ابقى هكذا وانا في مكاني تنخر الهواجس في قلبي ، وتقتلني هذه الحفنة من الافكار السوداء التي تصور لعقلي وقلبي الاشياء الصغيرة على انها اكبر من ان اتخيلها ٠٠

لم استطع ان احتمل اكثر ٠٠

احتملت مافيه الكفاية ٠٠

ثم انفجرت ٠٠

وجننت . .

كل شيء في يجن من حولي ليحيل الدنيا الى قطعة من نار ترقص فوقها ظنوني المخيفة لتدمرني . .

وقررت ان اذهب اليه بعد ان يأست من مجيئه الي . .

اين استطيع ان اراه ! . .

لم يطل بي التفكير ، وذهبت الى الكليـــة التي يدرس فيها ، وسألت بعض الطلبة عنه ، فقالوا لي انه قد ترك الكلية منذ ايام ، واعطاني احـدهم عنوان الشقة التي يسكن فيها . .

وذهبت اليه في شقته وقلبي يكاد ينخلع من مكانه مع كل خطوة القيها لتقربني من المكان الذي يسكن فيه ، وانفاسي تلهث من الخـوف ، واحاول ان احبسها في صدري . . ووجهي ممتقع ، واخاف ان يراني احد الذين يعرفوني من الناس وانا اهم بدخول شقة رجل غريب . . واعصابي خائرة ، واحاول ان اذيبها في رأسي قليـلا لتبترد حـتى استطيـع ان اسيطر عليها . .

و . .

صعدت الى الشقة . .

ووقفت امام باب الشقة . . وقفت فـترة طـويلة من الوقت وانا متردد . . حائرة ، خائفة ، جبانة ، ذليلة ، تافهة ، احساسي يصور لي نفسي على انها قد جبلت من كل الرذائل في وقت واحد . .

وفكرت ان اعود من حيث اقبلت . .

انا افعل هذا . . ! انا ، كيف يمكن ان يحدث هذا يا الهي . . ! كيف افكر ان اذهب الى شقة رجل اعزب ، وماذا سيقوله الناس عني ! . .

لم يطل بي التردد الا قليلا ، ودفعتني الرغبة الملحة الى ان امـد يدي

وهي ترتعد الى جرس الباب لأضغطه بكل اعصابي المنهارة ..

و ..

فتح الباب ..

فتحه لي صلاح بنفسه ..

ورآني ..

وبوغت .. كأنه كان يتوقع ان يكون اي واحد من الناس الا انا ، وارتد الى الوراء قليلا وكل شيء فيه يخور مرة واحدة في داخله ، ووقف يتأملني وانفاسه تتصاعد الى صدره ، وعيناه تدوران في محجريهما بسرعة ، ثم تمتم بعد ان اشتد الصمت من حولنا بعض الوقت :

ـ ميادة !..

دخلت الشقة ، ولم اقل شيئا ..

وتبعني الى الداخل بخطوات مترددة ، بعد ان اغلق الباب ..

والتفت اليه ، فعاجلني وهو يرمقني بنظرة أسف عميقة :

ـ كيف عرفت مكاني ..

قلت وانا ارمق قطع الاثاث الفخمة التي اشتراها حديثا ليزين بها شقته :

ـ ذهبت الى الكلية ولم اجدك ..

قال بلا مبالاة وهو يولع له سيجارة :

ـ اجل ، لم اذهب اليها منذ ايام ..

قلت بحزن عميق :

ـ وقالوا لي انك قد تركت الكلية ..

ـ كلا .. لم اتركها بالمعنى الصحيح ، لكني افكر بتركها ..

ابتعدت عنه قليلا ، وصحت بتوسل فيه وكل اوصالي تتقطع من اجله :

ـ كلا . . صلاح ، لن تترك الكلية . . ارجوك . .

قال وهو يتفحصني بغرابة :

ـ ميادة ، اني كما ترين قد اصبحت امتلك ثروة كبيرة ، وعلي تقع مسؤولية حماية هذه الثروة . .

قاطعته وانا احس بانه قد اخذ يبتعد ببطء عني من طريقته في الكلام معي :

ـ لكن ، مادخل الكلية في ثروتك ياصلاح ! . .

قاطعني وكأنه يحاول ان يفهمني اشياء لا استطيع ان اتوصل الى فهمها :

ـ بصراحة . . اني لا استطيع ان اوفق مابين الدراسة وادارة اعمالي الجديدة . .

ـ تستطيع . . تستطيع ، واني واثقة انك تستطيع ، لكنك انت . . لا ادري ما الذي غيرك هكذا . .

صاح كأنه قد غضب :

ـ اني لم اتغير . . تأكدي ، اني لم اتغير بالرغم من كل هذه المظاهر التي ترينها . .

سكت ، ولم اقل اي شيء ، فعاد ليقول وهو يقترب قليلا مني :

ـ ميادة ، ياحبيبتي . . اعذريني ، اني احبك . . احبك . . لكن هناك اشياء كثيرة تدوخني هذه الأيام فتجعلني انسى نفسي والدنيا . .

لم اجبه ايضا ، واستطرد وهو يمد يده الى وجهي ليرفعه اليه ويتطلع في عيني لحظات طويلة :

ـ منذ ان عرفتك وانا احلم لو اني استطيع ان اخلق من تلك الاحلام التي كانت تراودني معجزة صغيرة تجمعنا معا الى الابد وكانت

احلامي تلك ابعد من الخيال الى نفسي . . كانت بعيدة . . لذلك ، كنت دائما اثور على الدنيا والعنها . .

كنت اتطلع فيه ببلاهة . .

كنت حائرة تماما من امره . . كل كلمة من كلماته كانت تبدو لي غريبة . . كل كلمة ، كأنني اقف امام صنم لأخدع نفسي بوجود الحياة فيه . .

وواصل وهو يداعب شعري بلين :

ـ هل تعرفين ماذا تعني هذه الثروة بالنسبة لي . . هل تعرفين ماذا تعني بالنسبة لك . .

لم اجبه ، وبقيت عيني في عينيه ، واستطرد :

ـ هذه الثروة تعني اننا سنستطيع ان نحقق الحلم الكبير الذي كنت احلم ان احققه في يوم من الأيام . . هذه الثروة هي القوة التي ستسندنا وتبقينا اقوى من القدر ونحن نلاطم تياره الجارف . .

كالمجنونة ، اقف لأتطلع فيه وانا لا ادري ماذا يقول ، ولا ماذا يريد ان يقول . .

وواصل بحرارة :

ـ سنتزوج ياحبيبتي . . سنتزوج لنعيش كل عمرنا معا . .

اعادتني حكاية الزواج هذه اليه من عالمي الذي تمزقه الف حيرة . .

الزواج ! . . الزواج ! . . الزواج ! . .

الشيء الذي كنت ابحث عنه منذ ان اصبت باليأس منه . . الحلم الذي كنت احلمه منذ صغري وانا انتظر اليوم الذي سيقبل فيه فارس الأحلام ممتطياً صهوة جواده لينتزعني من مكاني الذي اعيش فيه ويأخذني معه الى الجنة حيث نعيش كل عمرنا لا نفكر بالدنيا ولا باهلها . . طعامنا الحب

وشرابنا قبلات شهية نتبادلها كلما احسسنا بالعطش لتعيننا على الحياة . .

احلام الطفولة توشك ان تتحقق . .

وفارس احلامي هو صلاح . .

احسست في لحظة ان كل همومي تزول مرة واحدة ، وبتلك الهواجس الثقيلة تنزاح من على كاهلي ، وبالخوف ينفذ من نفسي المشبعة به ليتسرب الى خارج كياني ، وبأني قد عدت قوية كما انا . .

وقلت له وانا اتعلق به و نفسي تذوب بين ذراعيه :

ـ صلاح . .

ـ ياحبيبتي . . هل توافقين . .

ـ صلاح . . اني لا اصـــدق . . اني سعيدة ياصـلاح . . سعيدة ، وفرحتي اكبر من ان تسعني . .

قربني اليه ، فنام رأسي على صدره بمنتهى الأمان ، ومد يـــده الي يتحسس بها شعري ويداعبه ، فرفعت وجهي اليه . .

وقرب وجهي اليه قليلا . سحبه الى وجهـه ، وشفتاه ترتعدان من اللهفة والشوق الي ، واغار بهما على شفتي يمتصهما بنهم وجوع شديدين . .

وهمست له من بين انفاسي الحارة وهي تذوب في صدري :

ـ صلاح . . كم تحبني ياصلاح . .

قال وهو يكتم انفاسي بقبلاته العنيفـة كأنه في معركة ويريد ان ينتصر فيها :

ـ اكثر من الدنيا كلها . .

ـ صلاح . .

ـ اسكتي . . اسكتي . .

ومد يده الى ثوبي . .

احسست بانامله ترتعد وهي تفك ازرار الثوب بعجلة . . وحاولت ان امانع . . اردت ان اسحب نفسي منه قليلا . . اردت ان ادفعه قليلا عني . .

اردت . . اردت . .

لكني كنت قد اصبحت ضعيفة . .

اضعف من ان افعل اي شيء . .

وكنت راضية . .

ومد يده الى داخل الثوب . . الى صدري . .

و . . .

لا ادري ماذا حدث بعد ذلك .

●

-١١-

وعرفت الطريق الى شقته . .

اصبحت اذهب اليـه في كل يـوم . . واحيانا ، كنت اذهب اليه في الصباح ، ثم اعود اليه في المساء . .

وكان يأخذ مني كل شيء يريده . .

يأخذه ، كأنه من حقه علي ان اعطيه كل شيء في . .

ولم يعد يأتي الي في غرفتي . . اصبحت انا اذهب اليه كلمـا ارادني ان اكون معه ، وبمجرد ان يرفع سماعة تلفونه ويطلبني ، كنت بعد قليـل عنده في الشقة . .

و . . . .

هل كنت راضية عن نفسي وانا اسلمه جسدي يعبث به كلما حن الى العبث به . . هل كنت مقتنعة ان الشيء الذي افعله يرضي ضميري كأنسانة لها كرامة الفتاة واعتزازها بانوثتها . . هل كنت مقتنعة . . هل كنت . .

لا ادري . .

لـكني حتما كنت خائفة من نفسي وانا انقاد معـــه الى الهاوية التي ترهبني ، وخوفي يشتد ويتضخم مع مرور الأيام التي قد تكشف للقـدر عن السر الذي اخفيه عن الدنيا في كياني الممزق . .



كنت اجلس معه وانا حزينة . . حزينة ، وساهمة . . افكاري القلقة شاردة عني تبحث في الظلام الذي القيتها فيه عن المنفذ الذي استطيع منه ان اتخلص من حيرتي المدمرة . . وكنت انظر اليه لا كما كنت انظر اليه من قبل . . اصبحت نظراتي اليه ذليلة ، تحمل طابع التوسل والأستجداء ، نظرات ليس فيها اي احترام لنفسي ولا اعتزاز لكرامتي . . وكأني كلبة تجلس تحت اقدام سيدهامنتظرة منه ان يعطف عليها فيناولها ماتبقى في يده من عظم لتسد به جوعها . .

و . .

لم يعد يكلمني صلاح عن الزواج . .

اصبحت حكاياتنا تافهة ، مكرورة ، ثقيلة ، لا اثر فيها لحياتنا المشتركة . . لا اثر فيها لحبنا . .

اصبحنا لا نتكلم الا قليلا . . ولا نتكلم الا اذا احتجنا الى ان نقول شيئا . .

ثم . .

اصبحت لا اراه دائما . .

اخذ يتهرب مني كلما اردت ان آتي اليه ، او ان يختلق الاعذار الواهية فينهي لقاؤنا بسرعة ، او يدخل غرفته مستأذنا ليكمل اعماله الكثيرة التي يختلقها حين اكون معه ويتركني جالسة في مكاني حتى يصيبني الملل فاعود الى بيتي . .

ابتدأت اشعر بكل هذه الأمور . . وادركت بانه لم يعد يريدني بعد ان اخذ مني كل شيء وتركني لا شيء . .

ولم اكرهه . .

كنت احبه . .

وهذا هو سبب جنوني . .

وانتابتني خاطرة مجنونة ذات يوم . .

هل يحب صلاح واحدة غيري . .

ربما . .

ربما كانت هناك واحدة غيري قد الهته عني . . ربما استطاعت واحدة غيري من النساء ان تستولي على قلبه في لحظة غفلت فيها عنه فاخذ يبتعد عني ليتفرغ لها . . ربما كانت الفتاة الأخرى تحبه وتريده لها وحدها فاضطر ان يبتعد عني لئلا يخسرها . . ربما . .

من هي هذه الفتاة التي تجسر على اختطاف صلاح مني بعد ان لم يبق في ما يشجع اي رجل على قبولي . . من تكون . . ماهو شكلها . . كم هو طولها . . كيف هي عينيها . . ماذا ترتدي من الفساتين . . ماذا تضع من العطور . . كيف تسير . . كيف تقبل . . الى اي مدى يحبها صلاح . . الى اي حد . .

يا الهي . .

ماذا سأفعل حينئذ !. .

هذه الفتاة لو وجدت حقا فوق وجه هذه الارض فيجب ان لا اتسامح معها . . يجب ان اعرف كيف امزقها . . وكيف احطمها ، كما مزقت قلبي وحطمته . . وقد اقتلها لو اضطرني الأمر الى ذلك . .

لكن متى يراها . . واين . . اين يلتقي بها !. .

وهاجت علي ظنوني . .

وابتدأت احسب للفتاة الأخرى التي تريد ان تأخذ صلاح مني الف حساب . . ابتدأت اتخيلها واقفة امامي ، واخذت اضع الخطط في رأسي لتدميرها . . وابتدأت استعد للمعركة . .

معركة الحياة او الموت . .

قد يلتقي بها في الليل . .

اجل ، الليل . . ليس له غير الليل ليراها فيه ، اما خلال ساعات النهار فاني معه في اية ساعة منه ، وهو حتما يخشى ان يجتمع بها في وضح النهار لئلا افاجئهما معا فيحدث مايحدث وتفسد كل خططه . .

وقد يلتقي بها في شقته . .

واخذت اراقبه . .

اراقب شقته . . ولم يعد يهمني الناس ولا كلامهم الذي لايرحم . . لم يعد يهمني ان يراني كان من كان وانا اتلصص في الليل حول البناية التي يسكن صلاح احدى الشقق فيها . . لم يعد يهمني . .

حتى امي ، اصبحت لا اهتم لها ، ولا اكترث لأسئلتها الكثيرة كلما اردت ان اخرج من البيت في الليل . . في باديء الأمر كنت اختلق لها الأسباب التي كانت تقنعها ، ثم . . لم تعد تقتنع ، واصبحت تشك في امري كلما اردت ان اخرج ، لكنها كانت تحاول ان تجعلني احس بانها تصدقني بالرغم من كذبي عليها . .

كانت لا تريد ان تفاتحني بالأمر لئلا اخرج عن طاعتها . .

وكانت تعرف ان في الأمر اشياء كثيرة وكبيرة تخصني . . كانت تعرف ، لكنها كانت من الطرف الآخر تحاول ان تتغاضى عني دائما لئلا تكون النتيجة اشد وطأة مما هي . .

وكانت تتألم . .

كنت اراها حزينة دائما ، كئيبة ، لاتدري كيف تتصرف معي . . لاتدري ماذا تفعل لتوقف التيار العنيف الذي يجرفني امام عينيها ليسحبني الى الهاوية . .

و . .

تلك الليلة ، عرفت فيها اشياء كثيرة لم اكن اعرفها من قبل في صلاح . . وربما ، من تلك الليلة بالذات اخذت متاعبي مع صلاح تتخذ شكلها الاخير وهي تصطدم بالدنيا الجديدة التي تفتحت في وجه صلاح بعد ان ورث عن عمه امواله . .

وكنت احوم حول البناية حين لمحت سيارة صلاح تقف ويترجل منها ، وكان معه شخص آخر ، ثم اقبلت سيارة اخرى ووقفت خلف سيارته وترجل منها ثلاثة رجال وامرأة واحدة . .

وصعدوا كلهم الى الشقة . .

وطعنتني الهواجس في القلب . .

احسست ، ربما لأول مرة في حياتي ان صلاح قد طعنني في كبريائي وكرامتي الطعنة الأخيرة القاتلة التي لا ترحم ، وشعرت بان كل شيء بيننا يرسم لنا طريق النهاية الأبدية . .

ووقفت في مكاني والدموع تنزف من عيني ، وقلبي يتفطر من الألم ، ونفسي تمزقها الف ثورة فاشلة ، واعصابي منهكة ، واحاول ان اتجلد بالصبر . . ان اصبر حتى ارى خاتمة الحكاية ، لكنني لم استطع . .

وكل شيء في يثور بعنف . .

ثم . .

لم استطع ان انتظر في الشارع اكثر . . لم استطع ، كنت اريد ان استعجل نهاية هذه المهزلة الكبيرة التي تمثل امام عيني . . لم استطع ان ابقى في عرض الشارع والهواجس تنخر في قلبي لتذيبه حتى الموت . .

وصعدت الى الشقة . .

ماذا يفعلون في داخل الشقة ! . .

وضغطت على جرس الباب ، ثم وقفت في مكاني بانتظار ان يفتح لي احدهم الباب . .

ثم . .

فتح الباب . .

فتحته لي المرأة . .

وكدت ان اقع على الارض من فرط ما اصابني من الذعر والتقزز وانا ارى المرأة ماثلة امامي وهي نصف مخمورة والسيجارة ترتعد بين شفتيها كأنها تسخر مني . .

وتمالكت نفسي قليلا ، واردت ان ادخل ، لكنها لم تعطني المجال ، واعترضت طريقي بكل وقاحة ، وقالت وهي تترنح امامي في مكانها وكأنها هي صاحبة الأمر في هذا المكان ومن حقها ان تعرف من اكون وماذا اريد :

ـ ماذا تريدين ! . .

قلت بنفور وانا اضغط على اعصابي لئلا تنفجر في اية لحظة :

ـ اين صلاح . .

ضحكت باستهزاء ، ضحكة ماجنة جدا ، وقالت :

ـ من اقول له ! . .

ـ لا شأن لك . . فقط اريد ان اراه . .

ارادت ان ترد فازحتها من طريقي ، ودخلت مسرعة الى الداخل قبل ان تطبق الباب فى وجهي . .

ورأيتهم امامي . .

كانوا ، الرجال الاربعة ملتفين حول مائدة كبيرة ، ومعهم صلاح ، وحول المائدة قد تبعثرت اقداح الخمر ، وبعض الصحون الصغيرة وقد وضعت

فيها المزز ، وعلى الارض زجاجات كثيرة من العرق والويسكي والبيرة وهي فارغة ، واعقاب السيجائر تغطي كل مكان من الصالون . .

وكانوا يلعبون . . واصوات ضحكاتهم تغرق الغرفة وتنفذ الى الخارج ، ورائحة الدخان المنتشر في كل مكان تخنق الانفاس . .

ووقفوا جميعهم مذهولين لدخولي المفاجيء عليهم . .

وبقيت واقفة في مكاني انظر اليهم والحيرة تعصف بقلبي . .

وهب صلاح من مكانه . . كان يريد ان يبدو لهم ولي انه في حالة طبيعية جدا ، فاقترب مني وفوق شفتيه ترقد ابتسامة ذابلة شحيحة كأنه يأسف على مجيء في غير الوقت الذي اعتقدت ان اكون فيه معه ، ومد لي يده ليسحبني قليلا اليه ، لكني ابتعدت خطوة عنه فانفلتت يده لتعود الى مكانها ، وقال ببرود وكل شيء فيه يتحول بسرعة الى موجة من الاضطراب :

ـ الآنسة ميادة . . خطيبتي . .

والتفت اليهم ، وابتسم . .

كانت مفاجئة لهم جميعا . .

وكانت مفاجئة لي ايضا . .

وفي لحظة ، في اقل من لحظة تكومت موجة الحقد والثورة التي كانت تقتلني لتذوب مع الغفران في صدري ، ونسيت كل شيء جئت من اجله . . نسيت كل شيء . . نسيت حتى اوجاعي واحزاني ، ونسيت المرأة الاخرى التي تقف بالقرب من صلاح وهي تنظر الي بغير احترام ، ونسيت هؤلاء الرجال الغرباء الذين يعبثون في شقه صلاح ويدمرون له مستقبله . . نسيت . . نسيت . .

الا شيئا واحدا بقي يدغدغ مشاعري وعواطفي . . شيئا واحدا ، هو

اني خطيبة صلاح . . خطيبته امام كل هؤلاء الرجال ، وامام هذه المرأة . .

وصلاح لم يخدعني اذن كما كانت خيالاتي الرهيبة تصوره لي . . صلاح لا يزال يحبني ، ويحترمني ، ويريدني . . لكن ، قد تكون هنالك بعض الظروف التي تحتم عليه ان يتصرف بتهور وجنون احيانا . . انه كالطفل الصغير يريد دائما ان يعبث . . ان يعبث بكل شيء يصادف طريقه ، ومن الخطأ جدا ان اردعه او ابين له الحالة الخطيرة التي يتجه اليها . . لا ابدا . . هذه ليست طريقة للأصلاح . . الطريقة التي يصلح بها امثال صلاح هي ان يترك كما هو حتى يحس بالشقاء الذي سببه له طيشه فيعود الى الطريق الذي انفصل عنه بعد ان تدمره الاخطاء . .

ولا ادري كيف ارتسمت ابتسامة صغيرة فوق شفتي لأستقبل بها اصدقاء خطيبي ، وبقيت واقفة في مكاني لا ادري كيف ارحب بهم ، ولا ماذا اقول لهم . . وانقذني صلاح في لحظات ارتباكي فاشار لي الى احد المقاعد لأجلس ، وتمتم لي بحب كبير :

ـ تفضلي ياحبيبتي . . اجلسي وراقبينا ونحن نلعب . .

جلست في المكان الذي اشار لي اليه صلاح . .

وعادوا الى لعبهم . .

وعادت المرأة الى مكانها بينهم لتشاركهم اللعب . .

ومضى الوقت بطيئا . . مضت كل دقيقة وكأنها ساعة . .

وانتهت الساعات الطويلة . .

وقاموا لينصرفوا ، ودعوني وكل واحد منهم يأخذ يدي في يده ويبتسم ، وقالت لي المرأة وهي تودعني وابتسامتها الكبيرة تطفو فوق شفتيها المرتعدين :

ـ فرصة سعيدة يا آنسة . .

وخرجوا . .

وتركونا معا في الشقة . . انا وصلاح . .

وذهب صلاح ليغسل وجهه ، ثم عاد الي . . كان حزينا ، وقال وهو يمرر يده فوق جبينه بعصبية :

ـ هذه الليلة كانت من اتعس الليالي . .

قلت وانا ارمقه بنظرة حزن عميقة :

ـ هل خسرت كثيرا . .

قال بلا مبالاة وهو يولع له سيجارة :

ـ الف دينار . .

صحت بلا وعي مني وكل اعصابي ترتعد بجنون :

ـ كم ! . .

ـ الف دينار ، لكني سأحاول ان استرد ماخسرته في الغد . .

اندفعت نحوه وقلبي تمزقه الأحزان الشديدة ، ورأسي تطعنه الف فكرة خائرة لا تجد لها فيه غير الظلال :

ـ صلاح . . لاتلعب بعد اليوم . . ارجوك . .

قال كأنه يسخر من نصيحتي التي جاءت في وقت متأخر جدا :

ـ لكني لايجب ان اهزم . . ويجب ان اكسب قليلا لأستطيع ان اعوض عن خسارة هذه الليلة . .

ـ لكنك قد تخسر . .

قاطعني بلا مبالاة :

ـ ربما . . واللعب ياحبيبتي اشبه بالمعركة ، يدخلها المحارب وايمانه بالنصر معه ، ويحاول ان يكسب المعركة . . ليس هناك من لايريد ان يكسب ، لكن . . من المحتمل ايضا ان يخسر . . والمهم ليس ان يصاب

الانسان باليأس . .

قاطعته والعذاب يحيل كل شيء في الى الدمار :

ـ صلاح . . حاول ان تفهمني . . حاول ياحبيبي . .

قال بمرارة وهو يشيح بوجهه عني :

ـ اني افهمك ياحبيبتي . . واعـدك بشرفي ان لا اعـود الى اللعب ، لكن بعد ان استرد ماخسرته من هؤلاء الأقزام . .

ـ صلاح . . انت لاتريد ان تستمع الي ياصلاح . .

قال بتذمر وهو يرمي بعقب سيجارته على الارض ويتنفس بضيق :

ـ ميادة . . سنتكلم في هذا غدا . . وارحميني الآن ، ارجوك . .

ـ اني اتعذب من اجلك ياصلاح واشـعر بروحـي تحتضر كلما اراك وانت تتألم . .

تمتم وهو يطويني بين ذراعيه ويقبلني ببرود في شعري :

ـ تعالي لأعيدك الى بيتك . .

لم ارد ، وقمت لأسير امامه نحو باب الشقة . .

وخـلال الطريق الطويل مابين شقته وبيتي لم احاول ان اقـول له اي شيء . . كنت واجمة افكر باشياء كثيرة لا ادري اين ستقودني نهايتها . .

●

- ١٢ -

ابتدأت اشعر بأحاسيسي ان كل يوم يمر علينا انا وصلاح يجعلنا نبتعد عن بعض اكثر من اليوم الذي قبله ، وكل لقاء لنا يجعل الهوة تتسع بيننا اكثر مما كانت عليه من قبل ..

وكثرت خلافاتنا ..

اصبحنا نختلف على اتفه الأشياء ..

وكنت دائما ، من طرفي ، احاول ان اقترب منه .. ويحاول هو ، من طرفه ، ان يبتعد عني .. ويزداد بعده يوما بعد آخر ..

وكنت خائفة ..

خائفة ان يأتي اليوم الذي نفترق فيه عن بعض وتنتهي حكايتنا اللذيذة من الدنيا كما انتهت غيرها من الحكايات ..

و ..

في تلك الأيام القليلة الأخرى التي مرت ، مرضت امي ولازمت الفراش .. كان مرضها لايدعو على الخوف .. مجرد انحلال في جسدها ، ونصحها الطبيب ان تبقى في الفراش بضعة ايام حتى تخف ..

لكنها لم تخف ..

وازدادت حالتها خطورة ..

و ..

ماتت . .

ماتت ، واصبحت كالمجنونة . . اتنقل من مكان الى مكان في البيت الموحش الكبير ابحث في كل شيء فيه عن الآثار التي خلفتها فيه اعز انسانة كانت لي في الحياة . .

وكنت ابكي بمرارة . .

لم تكن لي غير الدموع التي استطيع بها ان اخفف عن نفسي الموجعة بعض مايكتنفها من الأحزان . .

وطيفها لايفارقني . .

دائما ، في كل لحظة اراها ماثلة بوجهها الصبوح امامي وهي تبتسم لي من قلبها ، كما كانت تفعل حين كانت تعيش معي ، كأن ابتسامتها تلك نفحة من امل تهبني اياها من عالمها البعيد لعلها قد تعينني على مواصلة الطريق في الحياة . .

في بادىء الأمر كنت ارغب في تخيل صورتها لأعيش معها في الخيال بعض اللحظات اناجيها من البعد الشاسع الذي يفصل مابينها وبيني . .

ثم . .

اصبحت صورتها ملاصقة لي في كل حين . .

اصبحت لاتفارقني . .

واخذت اخاف منها . . ومن صورتها . .

ابتدأ خيالها يخيفني . . يرهبني ، ويثير في نفسي المزيد من القلق والتشاؤم من الدنيا . .

واخذت اتهرب منها . . من صورتها التي تملأ كل مكان من البيت . . كنت اتخيلها وهي ثائرة في وجهي تعاتبني على ما ارتكبته من الأخطاء ، واتخيلها وهي تصفعني وتركلني بالاقدام ثم تجرني من شعري وتطردني

من البيت لأنام في الشوارع ، واتخيلها وهي تبكي وتولول من الفضيحة التي خلفتها لها ، واتخيلها وهي راقدة في فراشها والدموع تغرق عينيها كأنها تغسلهما بماء التوبة لعلها قد تشفع لي عند الله الذي في السماء فيغفر لي اخطائي •• واتخيلها •• واتخيلها ••

واردت ان لا افكر فيها •• اردت ان ابعدها عني •• اردت ان ابعد صورتها عن خيالي •• اردت ••

ولم استطع ••

كان كل شيء في البيت يذكرني بها ••

و ••

هربت من البيت ••

تركت البيت كله لها •• لخيالها ، لروحها •• وذهبت الى صلاح ••

كنت قد انقطعت اكثر من اسبوع عن رؤيته ، فاستقبلني بفرحة الطفل الذي فقد لعبة كان يحبها في وقت من الأوقات ، ثم اهملها ، ثم حن اليها ، وحين ارادها لم يجدها امامه ، فحزن قليلا عليها •• ووقف فى مكانه يتأملني بحرارة وشوق كبيرين وفوق شفتيه تنام ابتسامة صغيرة كالتي كان يمنحها لي ايام ان كان يأتي الي في غرفتي . .

وبقينا صامتين لحظات طويلة . . لا انا اريد ان اكون البادئة في الكلام ، ولا هو يريد . . وطالت فترة الصمت بيننا اكثر مما يجب ، فقال ولاتزال عيناه فيهما جوع شديد الي :

ـ اين كنت ! . .

قلت حالا وانا احبس الدموع في عيني لئلا تظهرني ضعيفة امامه :

ـ ماتت امي . .

لانت نظراته قليلا ، وتمتم بحزن شاحب :

ـ البقية في حياتك . .

قلت وانا أحس بالجرح الذي في قلبي ينزف بلا هوادة :

ـ ولم يبق لي من الدنيا غيرك . .

اقترب مني ، ومد يده نحوي ليسحبني قليلا اليـه . . وكأني انا الاخرى كنت انتظر منه هذه اللحظة لأندفع بكل قوتي اليه وانا اجهش في البكاء ، فاحتضنني الى صدره وراح يمرر شفتيه فوق شعري . . وانتظرني حتى اهدأ قليلا ، ثم قال :

ـ انا الآخر ، ليس لي غيرك يا حبيبتي . .

ـ كيف سأعيش ياصلاح ! . . كيف ! . . قل لي ، كيف سأعيش وانا اشعر بان الدنيا تغلق كل ابوابها في وجهي . .

قال وهو يضع يده فوق فمي ليمنعني من الاسترسال في صب كلمات العتاب في اذنيه :

ـ انت واهمة . . واهمة ياحبيبتي . . الدنيا التي يخيل لك انها قـد سدت كل ابوابها في وجهـك قد فتحت لك منذ الساعة بابهـا الكبير ليصلك بقلبي . .

ـ لكن ، ياصلاح . .

ـ لا تقولي اي شيء . . ميادة ، انت لا تعرفين كم احبك . .

رفعت وجهي اليه ، ونظرت الى عينيه الذائبتين في دنيا القدر ، وكانت الدموع الحارة تملأ كل وجهي ، فرفع سبابته ليضعها فوق اجفاني ليمسح بها ما جف من الدموع فيها ، واردف :

ـ فقط امهليني قليلا . . امهليني وسترين كيف سأكون انا بالنسبة اليك ياحبيبتي . .

صحت بلهفـة المحروق الذي يتعذب من النار التي فيهـا

ولا يجد من يسمعه ليطفئها له :

ـ لم اعد احتمل ياصلاح . . وانت تعرف كم اتعذب . .

ـ احتملي هذه الايام القليلة القادمة من اجلي . . من اجل حبيبك . . من اجل صلاح . .

صدقته بسرعة . .

صدقته كما كنت اصدقه في كل مرة . . وربما لم اصدقه في عقلي . . ربما كان احساسي يتململ ما بين الشك واليقين ، بعضه يلح علي ان اصدقه ، وبعضه يقسم لي باغلظ الأيمان انه يخدعني . . لكن ، ما الذي كنت استطيع ان افعله غير ان اعيش على هذه البارقة الضئيلة من الأمل واترقبها بكل يقضتي لعلها قد تومض في لحظة من اللحظات فتنير دربي المظلم الذي اتعثر كلما سرت فيه . .

و . .

في تلك اللحظة ، رن جرس الباب علينا من الخارج ، فارتبكت . . في لحظة احسست بان عيون الناس كلها كانت تتبعني من بيتي الى شقته لتضبطني وانا معه . . لا ادري لماذا انتابني هذا الهاجس بالرغم من انها لم تكن المرة الاولى التي اكون فيها معه في الشقة ، وبالرغم من ان ذهابي اليه في شقته كان قد اصبح من الاشياء الطبيعية عندي ، لكن . . هذه المرة بالذات خفت . . وخوفي يتضخم لحظة اثر لحظة في نفسي ، فسحبت نفسي بسرعة من بين ذراعيه وكل اوصالي ترتعد من الخوف ، وتلفت الى كل الاتجاهات ابحث فيها عن اي مكان استطيع فيه ان اتوارى عن الذي يرن جرس الباب . .

وكأنه ادرك سبب خوفي واضطرابي ، فقال وهو يعيدني بحنان الى صدره ليحمي كل شيء في :

ـ لا تخافي يا حبيبتي . . لا تخافي . .

قلت وانا أكاد اختنق في المكان الذي لا استطيع ان افر منه :

ـ الباب . . جرس الباب يا صلاح . .

ضحك بكل رغبتـه للضحك ، ورد وهو يسترجع انفاسه المتزاحمة في صدره :

ـ لا تخافي . . انهم اصحابي . . عبد المنعم وبقية الرهط . .

هدأت قليلا . .

هدأت بعض الأشياء في ذاتي ، لكن . . راحت اشياء غيرها تقلقني اكثر ، فقلت بمرارة :

ـ وستلعبون القمار ! . .

ـ ليس لنا غيره .. نسلي به انفسنا قليلا ..

تعلقت به ، كأني اريد ان امنعـه من فتح باب الشقـة الذي سيقوده فتحـه الى ان يخسر كل شيء ، لكن جرس الباب عاد ليرن بقوة اشد من اول مرة فقلت :

ـ صلاح .. انت تخسر الكثير بلعب القمار ..

قال بمرارة وهو يتململ في مكانه :

ـ لقد خسرت اكثر مما يجب ، ولم يبق لي الا القليل من الأمل في الربح ..

ـ اتركه يا صلاح .. اترك اللعب ، ارجوك . . لقد اوعدتني ان تتركه .. الم تعدني ! ..

قال وهو يزيحني عن طريقه ليذهب الى الباب ويفتحه لأصحابه :

ـ اسمعي ، ليس الان وقت مثل هذا الكلام ياميادة ..

صحت والألم يطعن في قلبي ليحيله في لحظة الى كتلة من العذاب :

- متى اذن .. متى ياصلاح ، وانت تخسر كل شيء ولا تهتم ..

- سنتكلم في هذا بعد ان ينتهي اللعب ..

- صلاح ..

قاطعني وهو ينفلت من امامي ويتخطاني الى الباب :

- ارجوك .. الناس يقفون في الخارج ، وليس من اللائق ان نبقيهم ينتظرون ..

وفتح لهم الباب ..

ودخلوا ..

كانوا ثلاثة .. وعرفني بهم صلاح وهو يرشقني بنظرة لوم خفيفة على تجهم وجهي وانا اقف بجانبه لاستقبالهم ، وقال وهو يقدمني لهم :

- الآنسة ميادة . خطيبتي ..

والتفت اليهم ، واستطرد وهو يقدمهم الواحد بعد الاخر الي :

- الاستاذ عبد المنعم .. وانت تعرفينه بالطبع ، فقد تعارفتما في مرة سابقة ..

وهز عبد المنعم رأسه كأنه يوافق صلاح على ما يقوله ، وقال وهو يمد يده الى يدي ويضغط عليها بطريقة غير اعتيادية جعلت الدماء تتدفق الى وجهي :

- اهلا وسهلا . كيف الحال يا انسة ..

رددت وانا اسحب يدي منه بسرعة :

- اشكرك ..

وواصل صلاح وهو يقدم بقيه الرهط الي :

- الاستاذ رياض ، والاستاذ منير .. من اعز الاصدقاء ..

وصافحني كل منهما . .

وجلسوا . .

والوقت يمر علي ببطء . . كل لحظة تمر احس كأن السماء ترفع من فوق صدري البعض القليل من الثقل الذي احمله ، واحس باني اريد ان تمر اللحظة الاخرى لترفع السماء البعض القليل الآخر من الثقل . . وتمضي اللحظة الأخرى ، واتمنى لو تمر اللحظات بلمح البصر لأتخلص من كل تلك المنغصات التي يسببها لي هذا الجو المشحون بالقلق . .

كنت متضايقة من مكاني بين هؤلاء الرجال الغرباء الذين فرضهم صلاح علي فرضاً . . اشعر باني غريبة عنهم ، وعن جوهم الذي يثير في نفسي الخوف ، واكرههم . . لا ادري لماذا كنت اكرههم واتمنى لو ان الاقدار تنجدني فتبعدهم عني وعن صلاح الى الابد . . لا ادري لماذا كان يداهمني مثل هذا الشعور . . لا ادري لماذا . .

وابتدأوا في اللعب . .

وانتظموا حول المائدة الكبيرة ، وامام كل منهم حفنة كبيرة من الدنانير . .

ومضى بعض الوقت عليهم وهم يلعبون . .

واخذت سحناتهم تتبدل بسرعة . . وفقاً لمتطلبات اللعب ، وبرقت فوق وجوههم سيماء الحذر والخوف ، احدهم يحذر من الآخر الذي معه ، وانقلبت ضحكاتهم الى وجوم وترقب وخوف . . واخذ يبدو عليهم التعب والارهاق . . كأنهم كانوا في سباق ركض للمسافات الطويلة وتعبوا من شدة الجري . . اعصابهم خائرة ، وحبات من العرق تتفصد من جبين كل واحد منهم . . ونظراتهم مخيفة . . نظرات محتقنة يفرقها اصحابها حول المائدة بسرعة لتبحث لهم عن ورق اللعب الملقى في احدى زوايا المائدة . .

وكان اشدهم تعباً صلاح ..

وكان يخسر دائماً .. ويخسر الكثير في كل لعبة ..

وكان يحاول ان يطفيء تعبه بجرعات كبيرة من قدح الخمر الذي امامه، وسيجارته لا تنطفيء ابداً .. كلما اوشكت السيجارة على الانتهاء استبدلها بغيرها ..

عبد المنعم، هو الشخص الوحيد بينهم الذي لم يكن ليكترث للعب، ولم يكن ليحس باي مجهود او تعب كلما خسر او ربح .. كأنه كان يلعب من اجل ان يتسلى فقط لا من اجل ان يكسب ..

وكان يربح دائماً ..

وبينما كانت نظرات الكل تضيع فوق المائدة وتحسب للنقود المبعثرة في كل صوب منها الف حساب، كانت نظرات عبد المنعم تنصب علي في كل لحظة تبحث في كل قطعة مني عن الشيء الذي يريحه ..

وكانت نظراته تلتقي في كل مرة بنظراتي الخائبة، الذليلة، الخائفة من كل هذه الاشياء الغريبة التي تدور من حولي، ويبتسم لي، واضطر ان ارد له ابتسامته باقتضاب وانا اكاد اذوب في الحياء، وفي الخوف ..

واخذت لا انظر اليه ..

واخذت اتذمر من مكاني .. من وجودي كالكلبة بين هؤلاء الرجال .. واحسست بالغثيان، احسست كأن يداً ثقيلة اخذت تهوى بكل قوتها على عنقي لتخنقني، واريد ان اتنفس .. اريد ان استنشق الهواء النقي في غير هذا المكان الذي يمتليء بدخان السيجائر .. اريد ان اخرج .. اريد ان ابتعد .. اريد .. اريد اي شيء يبعدني عن هذا المكان .. وعن هؤلاء الرجال ..

لكن ..

ما الذي استطيع ان افعله في غير هذا المكان !..

لا شيء . . لا شيء استطيع ان افعله سوى البقاء هنا حتى تأتي رحمة من السماء فتهب صلاح الرشد لعله قد يصلح كل الأخطاء السابقة . .

ونظرات عبد المنعم ما زالت تلتهمني . .

ذلك الرجل الكهل ، الذي تجاوز عقده الخامس ، والذي اصبح كل شيء فيه يشكو من الهرم والشيخوخة . . ماذا يريد مني ، وماذا تعني تلك النظرات الجائعة التي يصبها على جسدي في كل لحظة ليعريه امامه ويستعرضه في خياله . .

الى اين اسير انا وصلاح في هذه الدنيا !. .

يخيل لي اننا نسير الى الافتراق . . نسير معاً في اتجاه واحد لنواري احلى ما كان عندنا التراب ثم نفترق على اتعس الذكريات . .

ما نهاية المطاف !. .

فكرت . . وافكاري القلقة تتعبني . .

ومشكلة المشاكل عندي اني لا زلت احب صلاح . .

ولن استطيع ان ابتعد عنه مهما يبدر منه تجاهي . . لن استطيع ان اتركه وهو بهذه الحالة . . انه مريض . . وبحاجة الى من يعتني به . . بحاجة الى من يكون لجانبه دائماً ليأخذ بيده في الوقت المناسب وينقذه من الهوة العميقة التي يريد ان يلقي بنفسه فيها . .

انه بحاجة الي . .

وكيف اتركه وهو قد يحتاجني في اية لحظة . .

اني اعرف صلاح . . اعرفه منذ ان كان فقيراً ، وكان انساناً طيباً ، هادئاً هدوء الملائكة ، لطيفاً ، وكان يعيش لمبادئه ، لأهدافه التي رسمها لنفسه واتعب عقله في رسم خطوطها الرفيعة . . لكنه ، فجأة يجد ان كل شيء من حوله يتبدل . . كل شيء ، واصبح بعد لحظة من موت عمه

من الاغنياء ..

فتغير ..

غيرته الثروة التي ورثها عن عمه ..

النقود استطاعت ان تغيره ..

غيرت كل شيء فيه .. غيرت ملبسه ومأكله ، وغيرت طريقته في الكلام ، وغيرت نظرته للدنيا ، وغيرت اصدقاؤه ، وغيرت مبادئه واهدافه .. غيرت كل شيء فيه الا قلبه ..

قلبه الرقيق هو وحده الذي لم تستطع كل هذه الثروة ان تغيره فبقي لي ..

وقررت ان ابقى معه ..

قررت ان اضحي .. ان اضحي اكثر مما ضحيت في سبيله لعلني قد استطيع ان انقذه في اللحظة التي يعود فيها الى عقله ..

و ..

انتهوا من لعبهم ، وقاموا لمغادرتنا ..

ومرة اخرى ، مد عبد المنعم يده الى يدي وضغط عليها بنفس الطريقة الغير اعتيادية ، ومرة اخرى تدفقت الدماء من وجهي وانا اغرق في الحياء من مكاني ، وتمتم عبد المنعم وابتسامته الثقيلة تثير في كل اعصابي :

ـ مع السلامة يا انسة .. اتمنى ان نراك دائماً ..

وخرجوا ..

وتركونا لوحدنا في الشقة ..

●

- ١٣ -

لم يبق لصلاح اي شيء ، وخسر كل الثروة التي ورثها عن عمه . .

وجن جنونه وهو يرى نفسه يعود الى نفس المكان الذي فكر في يوم من الأيام ان لايعود اليه . . جن تماما وهو يرى نفسه قد عاد الى حالة الفقر والحرمان والتشرد ليبحث له عن اللقمة التي يسد بها جوعه بعد ان كان يعيش في ترف وخمر ونسيان للعالم الذي يحيط به . .

وباع سيارته . .

ودفع ثمنها لعبد المنعم الذي كان يطلبه مبلغا كبيرا من المـال . .

وتبدلت حالته بسرعة . .

تبدل كل شيء فيه ، واصبح لا يعي كل شيء يدور من حوله . .

اصبح اشبه بالانسان الذى فقد ذاكرته وعاد الى الحياة ليعيش حياة اخرى غريبة لا تمت بصلة لحياته الأولى . .

وكان يتعذب . .

كل شيء فيه كان يذوب في العذاب . .

وحاول ان يطفيء عذابه بالخمر لينسى كل حياته المـاضية ، وكان لا يريد ان يستفيق على الدنيا . . كأسه في يده دائما يشرب منها كلما شعر بانه قد اخذ يعود الى واقعه المرير . .

وابتعد عنه كل اصحابه . .

لم يجدوا فيه ما يشجعهم على مصاحبته فتركوه . .

عبد المنعم ، الشخص الوحيد الذي كان يزوره في كل يوم ليطالبه بما تبقى له بذمته من النقود . .

واصبحت زيارات عبد المنعم ثقيلة على صلاح . .

ثم . .

ثقيلة علي انا الأخرى . .

وأخذ يلاحقني على مرأى من صلاح . .

ولم يكن صلاح يمتلك الجرأة ليردعه ويوقفه عند حده من العبث بكل ماتبقى بينهما من قيم واخلاق . . كان صلاح اجبن من ان ينهره ، ودائماكان يقف المبلغ الكبير من المال الذي استدانه صلاح منه في طريق طرده من من شقته . . وعبد المنعم نفسه كان يعرف هذا ، ويقدر انه مادام له بذمة صلاح هذا المبلغ من المال ، ومادام صلاح لا يستطيع ان يسدده له فانه في مأمن هنا في شقتنا ، ولن يستطيع صلاح ان يفعل اي شيء قد يغضبه لئلا يشهر في وجهه الكمبياله ويطالبه بدفع ما له عليه من طلب . .

والأيام تمضي بذل ، وملاحقات عبد المنعم لي تقوى وتشتد . . واصبح يلاحقني بكل شيء فيه . . بنظراته ، وبكلماته ، وبحركاته ، وبابتساماته ، وحتى بضغطات يده على يدي في كل مرة يأتي فيها الى شقة صلاح ، وفي كل مرة يغادر فيها الشقة . .

وكان يحاول دائما ان يشعر صلاح بانه يشفق عليه للحالة التي وقع فيها . . وكان صلاح يعرف بان اهتمامه له ليس الا من اجلي انا . .

لكنه ، لم يستطع ان يفعل اي شيء له . .

كان مرغما على ان يسكت ، ومرغما على ان يتجاهل كل الامور التي تدور امام عينيه لئلا تتضخم الاشياء وتنتهي به الى المكان الذي لا يتمناه ..

واصبح عبد المنعم قطعة منا ..

اصبح واحدا من اهل الشقة ..

وكان يأتي في كل مساء ومعه زجاجة من الخمر ، يفتحها ويجلس مع صلاح ليشربها معه .. واضطر انا الى الجلوس معهما في الصالون ..

واضطر الى ان ارد على نظرات عبد المنعم الي .. واضطر الى ان ارد على كلماته .. واضطر الى ان اتقبل مداعباته الثقيلة .. اضطر .. واضطر .. واضطر ..

ثم ..

علمت ذات يوم من صلاح ان عبد المنعم قد سدد عنه بدل ايجار الشقة التي نسكنها ..

وغضبت تماما ..

وحاول صلاح ان يشرح لي كل شيء ، وتكلم كثيرا .. تكلم حتى كاد رأسي ان ينفجر من الضيق وانا استمع اليه ..

وصحت في وجهه وانا في حالة من الغضب العنيف :

ـ كيف ترضى .. صلاح ، من يكون هذا الرجل لتقبل منه ان يدفع عنا بدل ايجار الشقة .. كيف ترضى !..

قال وهو يكبت الألم الذي ينفعل في كيانه ويدمره :

ـ لم يدفعه .. يا حبيبتي ، حاولي ان تفهميني ..

ـ افهم ماذا يا صلاح .. افهم ماذا !..

- انه لم يدفع اي فلس .. تأكدي ، وكل ما في الأمر اني قد طلبت منه ان يقرضني بدل الأيجار ، ووافق ..

ثم عصر رأسه بكلتا يديه ، ورفعه الي .. كنت احس به يتمزق بمنتهى القسوة في كل حركة يتحركها ، ويحاول ان يسيطر على نفسه ، وعلى اعصابه المنهارة . . ويحاول ان يبقى امامي نفس صلاح الذي كنت اعرفه واحترمه واحبه . . لكنه لم يستطع . . كان كل شيء فيه قد انهار تماما وفقد المقدرة على ان يستعيد مكانته الأولى في قلب الدنيا . .

وغمتم وهو يعض على اسفل شفتيه بقوة حتى ادماها :

- عبد المنعم هذا يطلبني ثلاثة آلاف دينار ، ولا ادري كيف اردها له لأتخلص من مضايقاته . .

بقيت واجمة في مكاني بالرغم من ان كلمات صلاح هذه كان وقعها اشد من وقوع الصاعقة على قلبي ، فاستطرد وهو يتأملني بلين ويلوي اصابع يديه الى الخلف كأنه يريد ان ينتزعها من كفيه :

- ان مجيئه في كل يوم الى الشقة يضايقني . . ويضايقك انت ايضا . . لكن ، ليس لنا الا ان نحتمله . .

انسحبت ببطء من مكاني واتجهت الى المكان الذي يجلس فيه ، وقلت :

- صلاح . . الى متى سنبقى هكذا معه . . اليس هناك من حل . . اجبني ! . .

رفع وجهه الي . . رمقني بنظرة خرساء تائهة لا تعرف اين تستقر على وجهي ، وقال وكأنه قد اهتدى الى الحل :

- لقد فكرت في الحل . . وعليك ان تساعديني . .

ثم واصل وهو يبتلع ريقه بصعوبة ويتطلع برجاء في :

ـ ليس امامنا الا ان نسحب الكمبيالة منه باية وسيلة كانت لنستطيع ان نتخلص من تهديداته لنا . .

قلت بخوف وانا ارفع وجهي اليه :

ـ كيف !. .

اعتدل في مكانه ، واجاب :

ـ لقد دعوته هذه الليلة الى هنا ، وسنشرب . . سأحاول ان اجعله يشرب كثيرا حتى يفقد وعيه ، ثم . . سأطلب منه ان يقضي ليلته في الشقة عندنا . .

قلت وكل اوصالي ترتعد لتحيلني الى قطعة من الخوف :

ـ كلا . . صلاح ، لاتحاول ان تفعل هذا . .

قاطعني :

ـ اسمعيني ، ارجوك . . ليس امامنا الا هذا ، وسأحاول ان اسحب الكمبيالة من جيبه . .

ـ لكن يا صلاح . . ماذا لو رآك وانت تسرقها منه !. .

قاطعني بعصبية وهو يدفن وجهه بين يديه :

ـ سأقتله حينئذ . . تأكدي ، قد اضطر الى قتله ، وليس امامي غير هذا الطريق لأتخلص منه . .

صحت به وانا اهب من مكاني فزعة اليه :

ـ صلاح . . هل جننت . .

قال وهو لا يزال في حالته العصبية ويحاول ان يهدأ قليلا :

ـ ليس أمامي غير هذا . . ميادة ، يا الهي ، كم عذبتك معي . .

وبكى . .

كان يتألم . . كل شيء فيه يتمزق . . كل شيء فيه يريد ان يكفر عن اعماله الماضية ولا يستطيع . .

وبكيت انا الأخرى . .

بكيت لعذابه ونسيت ما انا فيه من العذاب . .

ومد يده الي ، وسحبني برفق اليه ، وتمتم من خلال دموعه :

ـ انت ضحية يا حبيبتي . . ضحية طيشي ونزقي ، واحاولي ان اعيد مافات الى ما كان عليه من قبل لنستطيع ان نعود الى الحياة ونعيش فيها كما كنا نحلم بها من قبل . . لكن ، يبدو لي ان المتاعب لا تريد ان تنتهي . .

ورفع يدي الى فمه بخشوع ، وطبع عليها قبلة صامتة ، وواصل :

ـ كم اتمنى ان اسعدك . . كم اتمنى ، لكن . . تلك الثروة القذرة ، المنحوسة ، التي اوقعتنا في كل هذه المتاعب قد حرمت احدنا من الآخر . .

قلت له ولا تزال الدموع تنخر في عيني لتحرقها :

ـ اني مستعدة ان اضحي بكل شيء من اجلك يا صلاح . . لكن ، ما الذي استطيع ان افعله انا !. .

سكت فترة من الوقت ، ثم رد :

ـ فلنحاول معا ان نلهيه طيلة وجوده معنا هذه الليلة حتى اجد انا طريقي معه . .

ـ لكن ياصلاح . . ماذا لو راك وانت تأخذ الكمبيالة من جيبه !. .

ـ لن يراني . . تأكدي انه لن يراني . .

ثم واصل وهو يمرر يده من حول شعره ويتطلع في عيني برجاء :

ـ واريدك ان تساعديني قليلا عليه يا حبيبتي . . وتذكري ، ان هذه

الليلة يجب ان تمر بسلام علينا حتى وان تخللتها بعض المضايقات . . وحاولي انت ان تجعليه يحس باننا معه ، واننا نحبـه ، حاولي ان تبتسمي دائماً في وجهه .. حاولي ، وتذكري دائمــا . . لو اننــا استطعنا ان نأخذ هذه الكمبيالة منه فان حياتنا منذ الغـد ستنتظم ونعـود كما كنا . . وسنتزوج . . وسنعيش معا والى الابـد في راحة دائمــة . .

لم اجبه . .

كنت خائفة . .

اشياء كثيرة كانت تنهال على عقلي وقلبي لتحيـل كل الدنيـا من حولي الى قطعة من الظلام الأبدي . . وكل شيء في كياني يضطرب . . يضطرب وهو يتمزق ، واحــاول ان اجعل هذه الليلة تمر بسلام . .

لكن . .

كيف ستمر هذه الليلة . . اريد ان اعرف قبل هذا السلام ، ما الذي سيحدث في هذه الليلة الرهيبـة . . اريد ان اعرف ، واكاد اجن لأني لا استطيع ان استبق الأحداث . .

واعدت نظراتي الحائرة ، الممتلئة بالقلق اليه . .

والتقت عينانا في لحظة واحدة . .

وقلت له وانا احتمي به ، كأني اريد ان احتمي به من عبدالمنعم ، ذلك الغول المفترس الذي اخذ خياله يخيفني ، فدفنت نفسي كلهـا في صدره ، وقلت له وانا ارتعد من الخوف :

ـ صلاح . . اني خائفة . .

قال وهو يداعب شعري بانامله بحنان :

ـ لن تمر هذه الساعات القليلة يا حبيبتي الا ونكون قد انتهينا من كل المتاعب التي تواجه حبنا ، وسنعيش من بعد الليلة لنحقق كل الأحلام الجميلة التي كانت تداعب خيالنا معا . .

ـ اني خائفة . . خائفة ياصلاح . .

لم يجبني ، وانقض على شفتي ليطويهما بشفتيه ويشبعهما تقبيلا ، فاندفعت بكل نفسي اليه . . الى شفتيه اريد المزيد من القبلات . . المزيد من الأطمئنان . . وتلاحقت انفاسنا ، احسسنا معاً ، في لحظة من اللحظات اننا نعود الى الدنيا بعد فرقة طويلة من العمر لنستعيد ثقتنا معا بالحياة وبحبنا العنيف الجارف الذي لن تقدر اية قوة في الوجود ان تمحيه من قلبينا . .

وبقينا هكذا اكثر من ساعة . .

لا انا اريد ان انفك عنه لاني احس في اللحظة التي اسحب من بين شفتيه نفسي كأني ضائعة في عالم كل اهله من الوحوش الكاسرة وستنقض جميع هذه الوحوش علي لو يتركني صلاح لوحدي ٠٠ ولا هو يريد ان ينفك عني لأحساسه باني بحاجة دائمة الى حبه الكبير ٠٠

ثم ٠٠

فجأة ، رن جرس الباب من الخارج ٠٠

وتركني صلاح في مكاني والنار تلسع قلبي وقام من مكانه ليفتح الباب ٠٠

كانت الساعة تناهز التاسعه ليلا حين أقبل عبد المنعم الى الشقة حاملا بين يديه بضعة اكياس فيها زجاجات البيرة ، وزجاجة عرق واحدة ، وانواع مختلفة من الفواكه ، واشكال كثيرة من المزز ٠٠

وخف صلاح اليه ليتناول منه بعض ما كان يحمله من الحاجيات ليذهب

بها الى المطبـخ . .

ودخل عبد المنعم . .

ووقف يتطلع الي وابتسامته الشرهة تطفو فوق شفتيه ، وحيـاني بايماءة خفيفة من رأسه ، وقال :

ـ ليلتك سعيدة يا انسة . .

اقتطفت ابتسامة صغيرة من بين شفتي لأبادل بها ابتسامته الكريهة ، وتمتمت وانا ادير وجهي عنه الى ناحيـة المطبـخ ابحث عن صلاح ليأتي فينقذني منه :

ـ مساء الخير . .

ـ كيف الحال يا انسة . .

لم ينتظر مني ان ارد عليه ، وجلس فوق نفس الأريكة التي اجلس عليها ، ولا تزال نظراته الجائعة ترمقني بجنون يبعث في نفسي على المزيد من الخوف منه . .

وحاولت ان اهرب من نظراته . . ان اهرب من عينيه الجائعتين الذي يحاول بهما ان ينهش كل شيء في . . حاولت ، وبذلت كل ما عنـدي من طاقة . .

واستطعت الى حد ما ان اهرب من عينيه الجائعتين . .

لكني لم استطع ان اهرب من افـكاري التي ترهبني كلما اخذت افكر بما سيقدم عليه صلاح في هذه الليلة ، ولا كيف ستمر كل هـذه الساعات الباقية بسلام وانا اشعر بان الدنيا تكاد تنفجر من حولي في كل لحظة لتحيل كل شيء الى كتلة من رماد . .

وبقيت قلقة . .

حتى اقبل صلاح من المطبخ يحمل بيده زجاجات البيرة وثلاثة اقداح ،

فهب عبد المنعم من مكانه لنجدته ، وتناول منه زجاجات البيرة ووضعها فوق المائدة ، ثم التفت نحو صلاح ، ثم نحوي ، وقال وهو يطلق ضحكة صغيرة بكل احترام وتأدب :

- ثلاثة اقداح !. .

قاطعه صلاح بسرعة وهو يغمزني بطرف عينه ونفسه تضيع في موجة من الحياء من موقفه مني :

- هل نسيت ميادة يارجل !. .

- هل ستشرب الآنسة معنا !. . فرصة سعيدة جدا . .

اردت ان ارد عليه ، لكن صلاح كان اسرع مني في الرد عليه ، واجابه باقتضاب وهو يعود الى الزجاجات التي على المائدة ويرتبها على ذوقه :

- زجاجة من البيرة ستنشطها قليلا . .

رد عبد المنعم مؤيدا ما قاله صلاح :

- فعلا .. الأطباء يصفونها بدل الدواء احيانا ..

ثم ضحك ..

وفكرت وانا اتأملهما وهما يرتبان المائدة .. زجاجة من البيرة ليس فيها ما يخيف ، وليس فيها ما يسيء الى سمعتي ، ولن تحط من قدري عند عبد المنعم او غيره ، وانا قد سبق لي وشربت اكثر من زجاجة من البيرة في مناسبات كثيرة ، وشربت اكثر من زجاجة مع صلاح نفسه .. وهذه الليلة بالذات علي ان احسن التصرف ، وان لا اجعل مما تبقى من الساعات تبدو منغصة لعبد المنعم او لصلاح ، ويجب ان اجاملهما على الأقل .. وان اجامل عبد المنعم بالذات ليتسنى لصلاح ان يسحب الكمبيالة منه لتنتهي كل متاعبنا ويعود كل شيء الى ماكان عليه ..

هذه الليلة يجب ان تمر مهما يكن فيها من متاعب ..

ومهما يكن فيها من تضحيات ..

يجب .. يجب .. يجب ان اكون منطلقة في حديثي مع عبد المنعم .. يجب ان اشعره باننا انا وصلاح نحبه، ونقدره، ونود لو انه يبقى معنا المزيد من الوقت ..

هذا ما يريده صلاح ..

وفتح عبد المنعم زجاجة من البيرة، وصبها في الكأس التي امامي، وفتح لصلاح واحدة ثانية، وافرغها في الكأس التي امامه، وفتح له الثالثة، وافرغها في كأسه. . وقال وهو يرفع كأسه الى شفتيه وينظر الي والى صلاح مرة واحدة :

ـ نشرب قبل كل شيء نخب الآنسة ميادة . .

وافرغ كأسه في جوفه مرة واحدة، وتطلع صلاح الي برجاء، كأنه يتوسل بي ان احتمل كل هذه المنغصات من اجله للمرة الأخيرة، ونظرت انا الى صلاح بألم شديد، وكأني اقول له اني من اجله قد احتمل كل منغصات الدنيا، ثم ابتسمت لهما معا ورفعت الكأس وهي ترتعد الى شفتي لأرتشف منها رشفة صغيرة . .

وقام عبد المنعم من مكانه الى جهاز الغرامفون، وبحث في الأسطوانات عن مجموعة راقصة منها، ووضعها في الجهاز، ثم اداره عن مقطوعة تانكو بطيئة، وعاد الينا وهو يبتسم براحة عميقة ويفرك يديه الواحدة بالأخرى ونظراته منصبة على صلاح كأنه يرجوه ان يشعل جو المكان اكثر ليغرقه في الدفء . .

والتفت صلاح الي، وقال لي وهو يعيد الى عبد المنعم نظرة خائبة ثقيلة :

ـ تعالي نرقص . . هل تريدين !. .

حاولت ان ارفض . . ان اعتذر بلين ، لكن . . تلك النظرات الممتلئة بالرجاء والتوسل من صلاح جعلتني اوافق بسرعة ، فقمت من مكاني وانا احس بالحرج الشديد من هذه التصرفات الغريبة التي تدور بغموض من حولي . .

واحتواني صلاح بين ذراعيه . .

ولأول مرة ، كنت احس بانني ارافص قطعة من جماد لا روح فيه ولا حياة ، واحساسي هذا يتضخم ، ويكبر . . واحس بالملل ، وبالضيق ، وبقوة الذراعين التي يشدني بهما صلاح اليه تكاد تطبق على انفاسي المتعبة في الصدر فتخنقني . .

وتمنيت لو تنتهي الرقصة بسرعة . .

لكن . .

قبل ان تنتهي المقطوعة ، قام عبد المنعم من مكانه ، واتجه صوبنا ، ومد يده من وراء صلاح ، وهمس له بمرح وهو يحاول ان يسمعني مايقوله له :

ـ الآنسة ميادة ترقص بمهارة نادرة ياصلاح . . واتمنى ان اجرب حظي معها لو سمحت . .

لم يقل صلاح اي شي ، وسلمني اليه بمنتهى البساطة ، وعاد ليجلس في مكانه . .

واحسست حتى تلك اللحظة بان هناك شيئاً قد دبر لي في الخفاء . . شيء دبره لي صلاح مع عبد المنعم ، لكني . . حاولت ان اكذب تلك الظنون والهواجس حتى اللحظة الأخيرة . . حاولت ان اكذب احساسي . .

هل يعقل ان اصدق مثل هذا ! . .

كيف ! . . كيف اصدق ان صلاح يريد ان يقدمني لعبد المنعم . . كيف اصدق هذا ! . .

واشياء كثيرة كانت تضرب في الرأس وهي تضطرب من الخوف ، وتريد ان تتخلص من هذه القوة العنيفة التي تريد ان تسحقني .. وانا دائخة .. دائخة وانا بين يدي عبدالمنعم .. وعبد المنعم يدور بي ، ويدور ، ويدور .. كأنه يريدني ان ادوخ من كثرة الدوران حول نفسي ، فأقع .. وصدره يعلو ويهبط بانفاسه الحارة ، ووجهه يقترب ببطء من وجهي ، ويده ترتعش وهي تطوي خصري اليه ، ويده الأخرى ترتعش ايضا وهي مقبضة على كفي بقوة ، كأنه يخشى ان اسحب كفي منه في كل لحظة ، واقدامه راسخة في الأرض ، يديرها بلا مبالاة ولا تقيد وبلا اصول ..

والتفت الى الوراء قليلا ..

الى صلاح ، لأراه .. لأستنجد به في اللحظة التي قد احتاج فيها الى من ينقذني من هذا الغول الذي يريد ان يلتهمني ..

ولم اجده ..

كان قد ترك لعبد المنعم الشقة .. وخرج ..

وتركني له ..

ورفعت وجهي الى عبد المنعم ، اردت ان اقول شيئاً ، ان اعتذر له عن مواصلة الرقصة ، ان .. ان .. لكني لم استطع ..

خوفي منعني ..

وقال وهو يلفني اليه ويحاول ان يطبق وجهه بوجهي :

ـ هل تدرين يا انسة !.. اني معجب بك ..

دفعته عني بكل قوتي ، لكنه بقي مقبضـا على يدي بكفه القوية ، وسحبني اكثر اليه حتى اطبق صدره على صدري ، وتمتم وانفاسه تخور في صدره من التعب :

ـ مالك !..

- تعبت من الرقص ، واريد ان اعود الى مكاني ..

كأنه لم يسمعني ، واستطرد :

- اني احبك .. احببتك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها هنا وتمنيت لو اننا نكون لبعض ..

صحت به وانفاسي تلتهب في صدري :

- ارجوك .. دعني ..

لم يتركني ، وانقض بشفتيه على شفتي كالوحش الجائع الذي قتله جوعه ، وقبلني بكل قوته ، ودفعته عني .. دفعته بكل قوتي ، لكنه كان اقوى مني ، وكانت تلك المقاومة التي بذلتها لصده عني قد اوقدت فيه الرغبة على اقتناصي ..

وقبلني ايضا ..

وقلت له بتوسل وانا احاول ان ادفعه برفق عني بعد ان ايقنت ان لا فائدة من استعمال القوة معه :

- ارجوك .. اتركني ..

وقبلاته لا تزال تنهال علي ، وانا اختنق ، وانفاسي تتعب بسرعة ، واكاد اقع في كل لحظة على الأرض فتسندني يداه بقوة لترفعني اليه ، وعقلي لا يفكر .. لم يبق لعقلي المجال ليفكر ، وقلبي يتمزق ، والدموع تغرق عيني ..

وسحبني معه ..

سحبني الى غرفة النوم ..

وجننت ..

تمنيت لو اني استطيع ان انقذ نفسي من بين يديه القويتين واركض نحو المطبخ لأستل منه سكيناً حادة واعود اليه لأقطع بها جسده قطعة قطعة .. تمنيت لو اني فقط استطيع ان افلت منه لعلني قد استطيع ان

اجد لي الطريق الى الشارع . .

لكني لم استطع . .

ودفعني امامه الى الغرفة . .

و . .

دخل من بعدي اليها . .

ثم . .

اغلق الباب . .

●

وعاد صلاح في الصباح الى الشقة . .

عاد بعد ان خرج عبد المنعم منها . .

لم يكلمني وهو يدخل ، كأنه كان يعلم مسبقاً اني قد اكتشفت اللعبة الدنيئة التي قام بها مع عبد المنعم لأرغامي على بيع نفسي لهذا الأخير . .

لم اكلمه انا الأخرى . . تركته يذهب الى غرفة النوم ليخلع ملابسه ، ولحقت به ، ودخلت من بعده بقليل الى الغرفة ، ووقفت اتطلع فيه باحتقار وكل اوصالي تتقطع من الحقد والكراهية للدنيا التي القتني بين يدي هذا الرجل وجعلتني احبه كل هذا الحب . .

ورفع رأسه الي ، رمقني بنظرة باهتة خرساء ، ثم عاد واخفض عينيه عني الى الأرض ، فانتظرت منه ان يعيد نظراته الي . . وانتظرت وانا واقفة فوق رأسه وكل كياني يشتعل ليحيل كل الأشياء التي من حولي الى اشياء عقيمة ، مهزوزة ، تتراقص باضطراب امام عيني وهي تقع لتذوب في الفناء . .

ويأست منه . .

وقلت له وانا انقض عليه كحيوان مفترس يريد ان يؤذي كل مخلوق آخر اضعف منه سقط بين قبضته ليفتك به لا لشيء وانما لشعوره بانه قد عاد

الى قوته التي كان قد خسرها في جولة فاشلة مضت :

- لقد نام صاحبك هنا امس . . هل تعلم . .

لم يجبني ، وواصلت وكل اعصابي تتمزق من الحقد عليه :

- نام معي . . هل تعلم . . نام مع خطيبتك في نفس هذه الغرفة ، وفوق نفس هذا الفراش . .

لم يجبني ايضاً ، وكان يحاول ان يتمالك نفسه المنهكة واعصابه الخائرة المتعبة ، فواصلت القول وانا اتعذب لسكوته :

- واخذ مني كل شيء اراده . . اخذ حتى جسدي . . وكل هذا قد حدث وانت تدري . . حدث كل هذا بعلمك . . بارادتك انت . .

رفع وجهه الي ، لكن نظراته بقيت مسمرة في الأرض ، كأنه كان يخجل ان يرفعها الي ليراني بعد ان انحط الى هذا المستوى الرديء . .

وقلت وانا اسحب نفسي بسرعة من المكان لأخرج من الغرفة التي ابتدأت ارتهب من البقاء فيها :

- ومن هذه الساعة لا انت تعرفني ولا انا اعرفك .. وسأعود الى اهلي ..

انتفض فجأة من مكانه كأن عقرباقد لسعته ، وهرع نحوي ليمسك بي ويمنعني من تركه ، واستطاع ان يوقفني عند باب الغرفة .. فوقفت في مكاني ، ووقف هو امامي ، وعينه في الأرض لايستطيع ان يرفعها الي ، ويحاول ان يتكلم ويعجز لسانه عن الكلام ، ثم ضغط بكل ماتبقى عنده من قوة على طرف لسانه ، وقال في شبه توسل :

- كلا .. لاتذهبي ..

نظرت اليه بترفع ، كأني انظر الى حشرة صغيرة تمر من بين اقدامي

وبأمكاني في اية لحظة ان اهرس قدمي من فوقها فاسحقها ، وقلت :

- هل تريدني !..

- اني احبك.. وبقدر ما احبك فاني اريدك..

- هل تريدني لنفسك ام للناس !..

قال وهو يكبت الدموع في عينيه :

- انت تعرفين اني لا استطيع ان استغني عنك..

- لتقدمني للرجال الذين تعرفهم !..

- اني اسف.. وتأكدي ان هذا قد حدث من غير ان استطيع ان اوقفه..

- كنت تستطيع لو اردت.. لكنك انت لا تريد..

- كيف يرضيني ان ارى جسد اعز المخلوقات الى قلبي يهان ويداس ثم اسكت..

- لادري كيف.. لكنك انت اردت هذا، وقد حدث هذا الذي اردته من اجل ان تنال مقابل ذلك..

قاطعني بالم وهو يئن من الوجع :

- سامحيني يا حبيبتي.. سامحيني..

وسكتنا معا..

كل منا غمرته موجة من الأفكار الخاصة لتبعده عن الآخر وتجعله يتوه في دروب طويلة متشعبة ومخيفة لا يمكن ان تتلاقى ابد الدهر..

ثم عاد ليقول وهو يرفع يده الى يدي يريد ان يقبض عليها ، ثم لم يجسر ، فاعاد يده الى مكانها :

ـ لقـــد هددني النذل انه سيلقي بي في السجن اذا لا ادفع له . . واضطررت . . اضطررت بالرغم من اني كنت احس باني اقود روحي الى المذبحة . .

ثم بكى . .

آلمتني تلك الدموع الحـارة التي راحت تنزف من عينيـه لتغسل له آثامه ، وتمنيت لو اني كنت استطيـــع ان اسحق تلك الدموع ولا آبه لها كما سحقت صاحبها قبل قليل ، وتمنيت لو اني اقدر ان اتجاهلها . . لو اني اقدر ان اهملها . . لو اني ابقى كما انا ، قوية كالتيار الصاخب الذي لا يرحم . .

لكني لم استطع . .

كنت احبه . .

احبه بالرغم من كل ماسببه لي حبه هذا من المتـاعب . . احبه بالرغم من ان حبه يقودني دائمـا الى الذبح . . احبه . . احبه ، وليس هـــذا الشيء بيدي . .

وعدت لأقف بباب الغرفة ، وسرت ببطء نحو اقرب مقعـد صادف طريقي ، والقيت بنفسي فيه والحزن يمزق لي قلبي . .

وعاد الي بعد ان تركني في مكاني فترة طويلة من الوقت لاهدأ ، ووقف امامي ينظر الي بخشوع ، ثم قال وهو يمد يده بتردد وخوف شديدين ليضعها فوق كتفي :

ـ ميادة . . سنتزوج خلال هذه الأيام القليـلة ، وسأحاول ان ابحث منذ الغد عن اي عمل لنستطيع ان نعيش به . . وسأسعدك . . تأكدي ، اني سأحاول ان اعوض لك عما فات ، وسأجعلك تعيشين براحة دائمة وانت معي . .

لم ارد عليه . .

كنت احس بجسدي يتقطع قطعة قطعة وانا ملقاة فوق المقعـد ، واحساسي يصور لي ما حدث في الليلة الماضية على اني مهما ساكون بالنسبة الى صلاح فاني لن استطيع ان ارفع وجهي في وجوه الناس لأقف في صف النساء الشريفات منهن ..

وشعرت على انامله وهي ترفـع وجهي الى الأعلى قليـلا .. والتقت نظراتنا معاً ، وارتعشت عيناه قليلا وهو يصوبهما الي ، ثم قال :

- هل سامحتني ..

ابقيت عيني في عينيه ، فعاد ليقول وروحه تذوب في الحزن :

- ميادة .. دعيني اسمع هذا منك .. قولي انك قد سامحتني ..

اخفضت عيني عنه ، وتمتمت له وانفاسي تتهدج في صدري وهي تحترق في العذاب :

- فليسامحك الله ..

- اريدك انت ان تسامحيني قبل الله .. سامحيني انت وسيغفر لي الله ..

قلت وقلبي يعود مرة اخرى ليخفق بين جوارحي ليذكرني بانه مهما حدث فانه لايزال هناك مكان صلاح فيه :

- انت تدري مابقلبي ..

انقض على يدي يريد ان يبللها بدموعه فسحبتها منه بسرعة ، والقيت بكل نفسي بين احضانه ..

ثم بكيت ..

* * *

ومضت الأيام ..

وصلاح يحاول ان يجد له عملا ..

ثم تعب ..

اتعبه البحث عن العمل ، فكان يعود دائما الي بوجه مكفهر اضناه التعب ، وبأنفاس ثقيله لا تكاد تصل الى صدره حتى يلفظها بقسوة الى السماء ..

ولم ينقطع عن الشرب ..

في كل مرة يعود فيها من الخارج ، كان يأتي معه بزجاجة من العرق ، يفتحها ويشربها كلها ، ثم يسب ويلعن الدنيا والظروف التي جعلته يترك كليته وينغمس في دنيا لم تخلق له فضاع فيها ..

وكان وضعه المتردي يؤلمني جدا ، واحاول ان انصحه بالكف عن شرب الخمر ، واحاول ان ارشده الى الطريق الذي يجب ان يسلكه ليؤدي بنا معا الى حياة افضل من هذه التي نعيشها في هذا الجحيم الذي لايطاق ، واحاول .. واحاول ..

ثم ..

لم اجد اية فائدة من كل تلك المحاولات التي بذلتها معه ..

لم يكن يستمع الي ..

وتبدل بسرعة ..

اصبح انسانا آخر .. صلاح لم يبق منه غير الأسم .. وكل شيء ماعدا اسمه قد تدهور ، وهو في طريقه الى الفناء البطيء ..

ولا زلت احبه ..

مشكلتي الكبيرة اني كنت لا ازال احب صلاح بالرغم من كل تلك المتاعب التي كنت اواجهها وانا معه .. احبه بالرغم من كل ماقاسيته منه .. احبه .. ولعلني كنت مجنونة وانا افني شبابي في شقة رجل اعلم تمام العلم بان الأيام لا يمكن ان تصلحه ..

لكن ..

ما الذي كنت استطيع ان افعله !..

وان استطعت ان افهم كل هذا بعقلي فكيف استطيع ان اقنع قلبي وعواطفي بهجره والتخلي عنه ..

و ..

ذات مرة ، لم اعد احتمل وانا اراه على تلك الحالة المؤلمة وهو يصرخ ويثور ويلعن الأقدار التي قادته الى هذا الطريق ، فقررت ان اضع حدا لتصرفاته التي اصبحت لا اطيقها ، وان افرض ارادتي عليه بعد ان يأست معه في كل محاولاتي لأصلاحه .. كانت الحالة التي تولتني ساعتها غريبة ، وربما كانت شاذة علي انا التي لم اتعود طيلة العمر الذي قضيته معه ان اقف ذلك الموقف الصارم القاسي منه . . لكني كنت مرغمة . . مرغمة على ان اقف في وجهه لأردعه عن سلوك ذلك الطريق الذي يؤدي بنا معا نحو الهاوية ، فقلت له وانا ارد على صراخه بصيحة عالية اسكتته في الحال وجعلت سحنة وجهه تتغير في لحظة من حالة الغضب والتبرم من كل شيء الى حالة من الصمت والبلاهة :

- كفى .. كفى ..

وبقيت عيناه مسمرتين في عيني كأنه لا يصدق ان تلك الصيحة العالية التي اسكتت كل شيء فيه يمكن ان تكون صيحتي انا ، ولم امنحه المجال ليقول اي شيء ، وقلت له وانا اترك مكاني لأذهب الى غرفة النوم :

- لم اعد اطيق كل هذا . . هل تفهم ، لم اعد احتملك وانت بهذه الحالة . . سكر وشتم وصياح . . وسأجن لو بقيت يوما آخرا هنا . .

قال وهو يترنح من اثر الخمرة التي تمزق له رأسه ويحاول ان يسيطر على اقدامه لئلا يقع :

ـ وماذا تريدين انت مني !..

ـ لاشيء، وسأذهب لأعيش مع عمتي مادمت لم تعد تحتاج الي..

لانت قليلا نظراته، وارتخت اعصابه اكثر، وقال وهو يتجه ببطء وتراخي الى احد المقاعد القريب منه ويلقي بشكل ثقله عليه وهو يتنفس بسرعة:

ـ لكن ياحبيبتي، اني لم اقل لك مايغضبك.. ماذا قلت انا !..

ـ لاشيء، لكني انا لايمكن ان اقضي كل عمري في الجحيم..

ـ اي جحيم هذا ياحبيبتي !.. اي جحيم !..

قاطعته والف سكين تطعن في كياني لتمزقه:

ـ اسمع ياصلاح.. يوم تركت بيتي وجئت لأعيش معك هنا لم اكن احلم ابدا ان اعيش مثل هذه الحياة.. كنت انت قد اوعدتني بحياة جديدة.. هل تذكر، كنت قد رسمت لقلبي غير هذه الصورة البائسة التي اعيشها اليوم وانا معك.. وحلمت انا بالكلمات الدافئة الرقيقة التي كنت تصبها في اذني.. وأردت ان احقق تلك الأحلام التي عشنا لها معا.. هل تذكر، كيف كنا نجلس في غرفتي لتحدثني وانت مسترخي على الأريكة عن الدنيا الجديدة التي تحلم ان تكون لنا في يوم من الأيام..

تمتم وخياله يسبقه الى ابعد ابعاد الدنيا وكأنه يحاول ان يستعيد له اشياء غريبة كانت قد ابتعدت عن الدائرة التي يدور من حولها الآن:

ـ دنيا الخيال..

ـ كنا نستطيع ان نخلق من ذلك الخيال الرائع واقعنا الذي كان يجب ان يكون لنا..

قال كأنه يسخر مني ومن افكاري التي لم يعد يؤمن بها لأنها لم تعد تهمه في شيء:

ـ فلنخلقه . . لماذا لانخلقه . . فلنخلقه مادامت هذه هي رغبتك . .

ـ لـكنها ليست رغبتك انت . . وانا لوحدي لا استطيع ، واحتاج لقوة رجل . . احتاج لصلاح جـديد . . لروح صـلاح ، لقلب صـلاح ، لأحساس صلاح . .

ضحك ، وقال وهو يتجشأ ويبحث في اطراف الغرفة عن لاشيء :

ـ وصلاح امامك هنا . . وماذا تريدين اكثر ! . .

ـ انت لست صـلاح . . صـــلاح الذي كنت اعرفه لا يشبهك في شيء . .

ضحك ايضا وكأنه يستمع الى نكتة باردة ، وقال :

ـ لـكني اقسم لك اني انا هو صـلاح . . واني اقف لجانبك . . الا تريني ! . .

ـ صلاح الذي كان يحبني ويرسم لقلبي طريق الأمل والحياة لم يعد له اي وجود على الارض . . وانت لاتشبهه الا في الشكل . .

اعتدل قليلا في جلسته ، وقال وهو يحاول ان يكون جادا :

ـ حبيبتي . . ارحميني . . يجب ان ترحميني قليـلا . . يجب ان تعذريني ايضا . . اني امر بفترة نقاهة ، وستنتهي هذه الفترة ، وسأعود اليك كما انا . .

ـ لن تنتهي هذه الفترة ابدا ، وستأخذ منك كل عمرك . . تأكد ، انت لن تستطيع بعد ان ادمنت على الخمر ان تكون اكثر مما انت عليه . .

ـ استطيع . . استطيع ان اعود الى صلاح الذي كنت تعرفينه . .

ـ ما الذي يمنعك اذن من العودة الى ماكنت عليه ! . .

ـ نفسي . . اريـد ان انسى ، والخمـــرة تنسيني بعض متاعبي واحزاني . . لكن انت ياحبيبتي لاتريدين ان ترحميني بعض الوقت . .

ـ اني اتمنى لو استطيع ان انتشلك من هذه الهوة التي القيت نفسك فيها بارادتك . . لكن ، انت لا تريد . . وتريد ان تبقى عمرك كله هكذا . .

* * *

ومضت الايام الاخرى . .

بضعة ايام اخرى مضت ونحن لا نتحدث مع بعض . .

يخرج في الصباح ، وابقى انا في الشقة ، ثم يعود في المساء ، وا كون قد اعددت لنا شيئا لنأكله ، فنجلس معا لنأكل . . لا انا اكلمه ، ولا هو يكلمني ، ثم يذهب لينام في غرفة النوم ، وانام انا في الصالون . . ويخرج في الليل ، ثم يعود ومعه زجاجة من العرق ، ويجلس ليشربها لوحده ، واجلس انا معه . . اجلس بعيدة عنه اتأمله وهو يشرب الزجاجة بهدوء . . ثم تأخذ حالته في التبدل ببطء ، ويبدأ في السب والشتم . . يسب نفسه ويشتم الاقدار . . ثم يقوم بعد ان ينتهي من شرب الزجاجة لينام . . وابقى انا لوحدي في الصالون حتى انام . .

ومللت تماما من هذه الحياة العقيمة التي اعيشها معه . .

وتمنيت لو اني استطيع ان اتركه لحاله وابتعد عنه . . تمنيت لو ان قلبي كان من حجر اذن لتركته يموت لحاله مادام هو يريد ان يعجل في نهايته ، واذهب انا لحالي ابحث عما تبقى لي من نصيب في الدنيا . .

لكني لا استطيع . . وا اسفاه . .

مجرد احساسي بان الرجل الذي احبه يتعذب كان يدفعني الى البقاء لجانبه ورعايته لعلني قد استطيع في يوم من الايام ان اعيده الى واقعه الذي ابتعد عنه . .

حتى كان يوما . .

وعاد من الخارج ، وكنت قد اعددت الطعام على المائدة وجلست

بانتظاره . .

ودخل . .

ثم جلس الى المائدة ، ولم يأكل . . رفع وجهه الي ورشقني بنظرة دافئة طويلة كأنه يستعيد بها ذكريات عميقة البعد ويتحسر عليها ، وارتعشت عيناي وهما تلتقيان بعينيه ، فاخفضتهما عنه ، فقال وهو يسحب كرسيه ليقربه من المكان الذي اجلس فيه :

- يبدو ان الحياة الشريفة لم تعد تصلح لأمثالي . .

رفعت عيني اليه ، اردت ان اقول شيئا ، لكني تذكرت انه قدمضت فترة طويلة من الأيام علينا ونحن لا نتكلم مع بعض فيها . .

وسكت . .

فعاد ليقول وهو يدفن عينيه في الارض :

- مالك ! . .

قلت وانا احاول ان اتجاهله ويعذبني قلبي لأني اعذبه بتجاهلي له :

- لاشيء . .

- انت غاضبة . . غاضبة علي ياحبيبتي . .

- كلا . . لست غاضبة . .

قام من مكانه ، ثم وقف وراء المقعد الذي اجلس عليه ، ومد يده الى شعري يساويه برفق ، فسحبت رأسي منه بحركة لا ارادية ، فواصل يقول :

- ميادة ، ياحبيبتي . . انت آخر من يجب ان تفكر بالغضب مني . .

رددت عليه وقلبي يتفطر في صدري :

- قلت لك ، اني لست غاضبة . .

- كل شيء فيك يقول لي انك غاضبة . . وانا اتدمر ، واتعذب

كلما اراك وانت حزينة . .

ـ اني حزينة من اجلك . .

قال ونفسه تغرق في العذاب الذي يطويه ولا يستطيع ان ينفك عنه :

ـ ما الذي استطيع ان افعله لك ! . . ما الذي اقدر ان افعله لنا معا ! . . لاشيء ، اني انسان عاجز . . رجل لي كل صفات الرجال وابحث عن عمل ولا اجد من يقبل ان يشغلني عنده ، فماذا افعل للدنيا . .

قلبي لم يعد يحتمل عذابه اكثر . . اعصابي ، لم اعد استطيع ان اضغط عليها بارادتي اكثر لأبقيها صامدة في وجهه كالصخر الذي لا يلين . . نظراتي اليه لم اعد استطيع ان اجعلها تتسم باللامبالاة . .

اصبح كل شيء في يذوب من الحزن عليه . .

وقلت له وانا التفت التفاتة صغيرة اليه :

ـ لنا الله ، وسنجد باذن الله . .

قاطعني وهو يصفع المائدة التي نجلس من حولها بقبضة كفه بكل ما تبقى فيه من قوة :

ـ الله . . الله . . دائما الله ، والله لا يرانا . . الله يرى غيرنا من الناس . .

ثم هدأ قليلا بعد لحظات ، وقال وهو يعود الى كرسيه فيجلس عليه :

ـ هل تدرين ! . . لقد فكرت هذا اليوم ان اسرق محفظة نقود من جيب احد الرجال . . رأيته وهو يخرج دينارا منها ليصرفه في السيارة ، ولا ادري كيف امتدت نظراتي لتستقر على المحفظة فرأيت فيها كمية كبيرة من الدنانير . . وفكرت ان اسرقها . . وحاولت . . بذلت المستحيل لكي اقنع نفسي بان حاجتي لتلك النقود اكثر من حاجة صاحبها اليها ، لكني لم استطع . . عذبتني اشياء كثيرة كانت تضطرب في داخلي ، كأن هناك عشرات من السكاكين الحادة كانت تطعن في كياني لتردعني عن السرقة . .



قمت من مكاني اليه ..

لم استطع ان ابقى جالسة في مكاني والنار تحرق في احشائي من الداخل ، وقلت له وانا امد يدي الى كتفه واهصره بلين والدموع تغرق وجهي :

- صلاح ..

خنقتني دموعي ، ولم استطع ان اواصل الكلام ، والقيت بكل نفسي عليه ، فاحتواني بين ذراعيه ودفن رأسه في صدري وراح يجهش في البكاء كالأطفال ..

ودفنت اناملي في شعره ودموعي تغرقني في العذاب ، فرفع وجهه الي ، وتمتم وهو يحاول ان يتغلب على دموعه التي تضعفه امامي :

- انت كنت السبب .. انت ، خيالك منعني من ان امد يدي الى جيب الرجل واسرق محفظة نقوده .. لكن ، كيف استطيع ان احصل على مايجعلنا نعيش كما يعيش غيرنا من الناس !.. كيف ..

رددت عليه وانا اقبله في وجهه واحس كأن باب السماء يفتح لنا من جديد بعد ان اوصدته الاقدار في وجهنا ليطل نور الله علينا فيباركنا :

- اصبر ياحبيبي .. لقد صبرت كثيرا ، وحتما ستجد العمل .. ان لم يكن اليوم ففي الغد ، فقط لاتيأس من عطف الله ..

- لو كنت استطيع ان اصبر اكثر على هذه الحياة لصبرت .. لكني لم اعد اطيق .. سأجن ياميادة .. سأجن ..

- اعتمد على الله ، وعلى نفسك ، وتذكر دائما ان الله يرانا ولن ينسانا ابدا ..

التفت الي ، ورفع بيده التي ترتعد وجهي اليه ، وغارت عيناه في عيني

لحظات طويلة ، ثم قال وهو يطبع قبلة رقيقة فوق وجهي :

- ترى ، لو لم تكوني انت معي ، كيف كنت سأحتمل كل هـذا العذاب .. ماطعم الدنيا لو لم تكوني انت معي فيها ..

- اني معك دائما ياصلاح .. وسأبقى معك الى الابد ..

وطواني بذراعيه ..

وغبنا عن الوجود في قبلة دافئة طويلة ..

و ..

نسينا الطعام الذي كان على المائدة ..

وجدنا طعاما ، الذ منه واشهى ..

●

تلك الليلة غيرت مجرى حياتي مع صلاح ، وغيرت مجرى حياته مع الدنيـــا ..

وكانت ليلة من الليالي التي لايمكن ان انساها مدى عمري ..

ليلة كئيبة .. حـزينة ، ذليـلة .. لاشيء فيها يوحي بالأطمئنان .. لاشيء فيها يدعو على انها ستنشق عن فجر منير ..

وكانت ممطرة ..

الأمطار تهطل بغزارة من جوف السماء ، واكاد اسمـع صوت سقوط قطرات المطر الثقيلة وهي تصفع وجه الشارع وانا جالسة في مـكاني قرب النافذة المطلة على الشارع انتظر عودة صـلاح .. والليـل اوشك ان ينتصف ..

لعلها كانت المرة الاولى التي يتأخر فيها صلاح عن العودة الى الشقة .. لذلك .. اخذت تساورني الظنون ..

واخـذت احسب لتأخـره عن العودة الف حساب .. والخـــوف يلتهمني .. كل شيء في كان يخاف .. كل شيء في كان يتضايق من تلك الوحدة القاتلة التي تلفني ..

و ..

تجاوب الى سمعي وقع اقدام ثقيلة تضرب الأرض القريبة من
ب الشقة . .

ودق قلبي . .

ولا زلت خائفة . . مترددة من وقع تلك الأقدام الدخيلة التي تقترب
سرعة نحو الباب . .

ثم . .

توقف الصوت . . صوت الأقدام . .

وتحركت من خارج الشقة أكرة الباب . .

وفتحته . .

ودخل . .

عبدالمنعم ، وكانت بيده نفس سلسلة المفاتيح التي كان يحملها صلاح
معه ، ثم اطبق الباب من خلفه . .

وقفزت من مكاني وانا ارتعد من الخوف منه . .

وابتسم هو . .

ووقف في مكانه ينظر الي كالكلب المسعور الذي ينتظر في كل لحظة
ان تحين لحظة الهجوم لينقض على من وقع تحت قبضته لينهشه بانيابه . .

ثم ، مضت لحظات سريعة مضطربة ، واخذ يقترب مني ببطء
وابتسامته الكريهة تسبقه الى شق الطريق نحوي . .

حاولت ان اصرخ . . ان استغيث . . ان اهرب ، اغافله واهرب من
امامه الى خارج الشقة . . لكني لم استطع . . اشياء كثيرة كانت تصرخ في
كياني وتتصارع فيما بينها لتوقفني في مكاني كالصنم الذي لاحياة فيه . .

وتمتم ببرود وهو يتطلع الى عيني :

ـ ليلتك سعيدة يا انسة . .

كأني كنت انتظر منه ان يبدأ في الكلام لأرد عليه، فصحت في وجهه وكل جسدي يرتعش من الخوف :

ـ ماذا تريد! ..

رد بمنتهى البرود وهو يرشقني بنظرة ذات معنى :

ـ انت ..

همد كل شيء في مرة واحدة، وقدرت انه سيأخذ نفس الشيء الذي كان قد اخذه مني في المرة السابقة، وسيستطيع ان يأخذ كل شيء يريده بسهولة لأني لن استطيع ان اقاومه، وليس امامي الا ان ارضخ له .. ليس امامي غير ان اقبل سواء ان اردت ام لا ..

وماذا استطيع ان افعل ..

لاشيء ..

القوة تتكلم في اغلب الحالات .. وفي هذه الحالة، القوة هي التي تفرض نفسها وتتحكم ..

نظرت اليه برهبة، بخوف ورهبة معاً، كأني شاة تقاد الى الذبح وتريد ان تفكر بحيلة بليدة لتنجو بنفسها من طرف السكين الذي فوق رقبتها .. وقلت في شبه توسل له :

ـ اسمع ياعبدالمنعم ..

قاطعني وهو ينقض فجأة علي بكل جسده لينتزعني بقوة من مكاني ويأخذني بين ذراعيه ويقبلني :

ـ انت اسمعيني . . اني احبك . . احبك واتمناك، واريدك دائما . . اريدك لي وحدي، لكن انت لاتريديني، وتحبين هذا القواد الذي اسمه صلاح . . وماذا افعل انا لك !. . ماذا !. .

ـ عبدالمنعم . . ارجوك . .



لم يستمع الي ، وواصل والنار تحرق في اعصابه حتى تذيبها في الشهوة :

ـ لم يكن امامي الا ان اعطيه الثمن . . واعطيته الثمن . .

كانت انفاسه تلهث في صدره ، ويحاول ان يجمعها بين اسنانه وهو يكلمني ، واستطرد وهو يسحبني اليه اكثر ، وانا احاول ان ادفعه عني ولا اقدر :

ـ اني احبك . . خذي كل شيء مني . . كل شيء ، فقط دعيني انعم بلحظات هنيئة معك . .

ـ اتركني . . اتركني . . اتركني . .

قلتها بيأس ، ورددتها اكثر من مرة وانا اعلم بانها لن تأتي بأية نتيجة معه . .

وقال وهو ينهال على وجهي بقبلاته وصدره يضيق بانفاسه :

ـ ميادة . . ميادة ، اني احبك . . احبك ، وكوني عاقلة . . وسأجعلك تعيشين كل عمرك في النعيم . .

صحت بكل صوتي به وانا احاول ان اتملص من بين ذراعيه القويتين :

ـ افهمني . . ارجوك ، حاول ان تفهمني . . اني . . اني لا احبك . . لا احبك . . اتركني . .

قال بعصبية وهو يسحق اسنانه بعضها ببعض وكأنه يبتلع اهانة كبيرة اوجهها له :

ـ ليس المهم ان تحبيني . وقد دفعت انا له الثمن ، ووافق هو . . ويجب ان استرده منك انت . . هل فهمت !. .

ودفعني امامه الى الغرفة . .

حاولت ان اسحب نفسي منه . حاولت بكل ما اتمكن عليه من

قوة ، لكنه كان اقوى مني ..
واغلق الباب علينا من الداخل ..

* * *

وعلمت بان لا مكان لي بعد تلك الليلة في شقة صلاح ..
لم يعد لي اي مكان في قلبه ايضا ..
ومهما يكن .. ومهما كانت الظروف التي تحيط بصلاح فاني لايجب ان ابقى معه بعداليوم على امل ان احاول معه لعله يعود الى الطريق الذي انفلت عنه ..
اصبحت اكرهه ..
اكره هذا الرجل الذي اسمه صلاح ، والذي راح يقبض الثمن ليبيعني الى اي رجل كان من اجل نفسه .. اصبحت امقته تماما ولا اطيق ان اجعل اسمه يمر على خيالي ..
ولم انتظر عودته الي كما انتظرته في المرة الأولى ..
لم يعد لي اي شأن معه بعد الذي حدث ..
واخذت اجمع كل شيء يعود الي واضعه في الحقيبة الصغيرة التي جئت بها اليه يوم ان تركت بيتي حال ان غادر عبدالمنعم الشقة ..
و ..
خرجت من الشقة الى الشارع ..
ووقفت دقائق طويلة اتأمل الدنيا المحيطة بي ، وكأني كنت ضائعة عنها ثم اهتديت اليها بعد عمر طويل قضيته في البحث ، واستنشقت كمية كبيرة من الهواء البارد الذي كان يهب على وجهي من المشرق .. استنشقت اكبر كمية استطعت ان اسحبها الى صدري ، كأني كنت في مكان ليس فيه هواء ثم فجأة تسرب القليل من الهواء الي من مكان لا اعرف اين هو ، واخاف ان تمر اللحظة الاخرى وينقطع الهواء ، واعود فاختنق ..

ومرت من امامي احدى سيارات الأجرة ، واشرت للسائق ، فتوقف . . وصعدت الى السيارة ، واعطيته عنوان بيتنا . . ثم استلقيت في مكاني على المقعد الخلفي وانا اشعر كأني اعود الى الدنيا من جديد لأعيش فيها حياة جديدة غير حياتي الاولى . .

وافكاري في السيارة لم تستطع ان تنجيني من صلاح . .

عدت ايضا لأفكر فيه . .

لا مفر لي منه . .

سيعود ، ولن يراني اقف في انتظاره . . ماذا سيفعل حينئذ . . ماذا . .! وسيحتاج الى من يعد له اموره . . الى من يقف لجانبه في المحنة . . الى من يعالجه . . الى من يقوي في قلبه الأمل الذي يكاد يذوي . .

من سيقف معه لينتشله من تلك الهوة السحيقة الذي يريد ان يرمي بنفسه اليها . .

كنت انا من قبل . .

من سيقف بعد اليوم معه !. .

لا احد . .

سيبقى لوحده . . سيعيش لوحده ، يتعذب ، ويحزن ، ويمزق نفسه في اللحظة الف مرة ، ويبكي ، ويتوسل الى القدر ان يعينه ، ويشرب الخمرة لعلها قد تعينه على النسيان . .

لكنه ، سيبقى معذبا . .

وا اسفاه . .

●

- ١٦ -

وعدت لأعيش مع عمتي نجيبة في نفس بيتنا الذي انتقلت هي اليه لتسكنه بعد ان هجرته . .

وفرحت بعودتي . .

كانت تعيش لوحدها في ذلك البيت الكبير بعد ان تركته وذهبت الى صلاح لأعيش معه ، وكانت تشعر دائما بان العالم كله قد تخلى عنها و نبذها بعد ان بلغت هذه المرحلة من العمر . . شعورها هذا جعلها هي الاخرى تبادل الناس المحيطين بها المقت والكراهية ، وجعلها تنفرد عنهم جميعا وتنزوي بين جدران ذلك البيت ، لا يهمها من امر الدنيا اي شيء . .

لذلك . .

حين عدت اليها احست كأن القدر قد عاد ليترفق بها بعد عمر طويل من العذاب فمنحها الشيء التي كانت تحلم ان تسعدها الأيام به . .

وبكت بحرقة وهي تراني اقف امامها وجهاً لوجه ، فاحتوتني بين ذراعيها وامطرتني بوابل من قبلاتها . .

وسألتني عن حكايتي . .

لم تكن تهمها الحكاية بقدر ما كان يهمها ان تثرثر قليلا معي بعد ان كاد اللعاب يجف في فمها المغلق كل هذه الحقبة من الدهر . .

ولم اكن صادقة معها بالطبع وانا اسرد لها حكايتي .. لكني استطعت الى حد ما ان اقنعها باني بعد موت امي قررت ان اهجر البيت الذي كان يذكرني بها ، وسافرت الى احدى المدن القريبة من بغداد ، وكنت اعرف فيها صديقة لي فبقيت في بيتها حتى حننت الى العودة ، فعدت ..

وصدقتني ..

لم يكن في حكايتي مايثير عندها اي شك ..

ورحت اطوف في البيت ، وادخل غرفه .. غـرفة بعد غرفة ، وابحث في زواياها عن الاشياء الغالية علي ، واتحسس حاجيات كل غـرفة بعذاب تصاحبه موجة من الرهبة والتردد ، ثم اشعر كأن كل شيء في البيت لا اعـرفه .. وكأني ادخـل هذا المكان لأول مرة في حياتي .. وارتحت لهذا الشعور .. ارتحت كثيرا لأني على الأقل ارى الاشياء جديدة من حولي بعد ان تعبت عيني من الاشياء القديمة التي تثير الحزن في القلب .. وعمتي نجيبة تتبعني بعينيها .. وترى كل شيء تقع عيني عليه بحزن ، وموجة من الرهبة تصاحب حزنها العميق ..

ومضت بي الايام وانا اعيش في البيت مع عمتي ..

وهي معي دائما ، ترعاني بحنانها ، وقلبها الكبير يتفتح لي يوما بعـد آخر لتطل منه روحها العذبة الممتلئة رقة وحنانا ..

كم بقيت معها وانا على تلك الحالة الضائعة !..

كم من الايام ، وكم من الاشهر قضيتها معها وانا في كل يوم منها اطوف في البيت ابحث فيه عن اشياء كثيرة كانت لي ولا اجدها فيه .. وكم من المرات صعدت فيهـا الى غرفتي وحبست نفسي فيها لأبـكي واجـتر ذكرياتي الجميلة عن تلك الايام التي مضت من عمري .. وكم من مرة كانت نظراتي تتسرب خفية لتزحف بخوف نحو الشرفة المطلة على الشارع تبحث

فيها عن خيال رجل اكرهه واتمنى له كل الخير . .

لا ادري . .

والايام تجري بعمري . .

ولا ازال انا في البيت يقتلني البحث عن الاشياء الغالية التي اضعتها فأعيش على امل ان استعيدها لتعيش في قلبي مع الذكريات التي احتفظ بها فيه . .

وصلاح . . صورته معي دائما ، في خيالي ، وفي قلبي ، وفي دمي . . صورته تملأ كل مكان اكون فيه . . ودائما الصورة نفس الصورة ، لاتتبدل . . صورة تمثله وهو يشرب الخمر ويلعن الدنيا ويسب القدر الذي رماه في الحضيض ولم يرحمه ، وكان يبكي في الصورة . . ودموعه الحارة تنزف بحرقة من عينيه ، ثم تتحرك الصورة قليلا ، فاراه وهو يرفع رأسه الي قليلا ليرمقني بنظرة ذابلة كئيبة يغمرها الحزن وكأنه يأسف لأنه لم يستطع ان يكون ذلك الرجل الذي كنت اريده ان يكونه . .

وكنت اتعذب . .

في كل يوم يزداد عذابي . .

وابكي . .

لم يبق لي غير الدموع . .

وكنت افكر ، دائما . . ومنذ ان عدت الى البيت وتركت صلاح لوحده كانت تنهال على عقلي افكار غريبة لم اعتد ان افكر بها من قبل . . لعلني فعلا كنت قد ابتدأت انظر الى الحياة نظرة واقعية واقيس كل الاشياء التي من حولي بمنظار من الواقع بعد ان مزقني الخيال الذي كنت اهرب اليه من قبل . .

كنت اقول لنفسي : ماهو مستقبلي في هذا البيت وانا حبيسة

جدرانه .. ما الذي ستفعله الايام القاسية التي لاترحم بي وهي تزحف نحوي لتطويني مع النسيان كما طوت غيري من اللواتي لا حظ لهن ولا قسمة في الحياة .. ماهو مستقبلي .. واين اقف انا من هذه الدنيا .. ومن الناس !..

لعلها المرة الاولى التي كنت ابحث فيها عن مستقبلي بعد ان ضاع مني..

ودائما ، كنت لا اجد الجواب الذي يقنعني فيريحني ..

كأني كنت اعلم مسبقا بان مستقبلي الذي ابحث عنه قد انتهى به المصير الى الدمار ، فلم يعد لي ما استطيع به ان اشق طريقي نحوه ..

هل سأكون مثل عمتي نجيبة !..

وابقى بلا زواج حتى آخر عمري !..

واعيش كما تعيش هي .. منبوذة من الكل .. لا احد يعرفها ، ولا احد يريد ان يعرفها .. كأنها قطعة من جماد لاتفيد بشيء .. هل اكون انا مثلها !..

واتمزق .. تمزقني تلك الهواجس ، واحترق في اليوم الف مرة .. تحرقني الظنون السوداء فيزداد قلقي ويشتد عذاب قلبي ..

* * *

وذات يوم ..

كنت في غرفتي ابكي وانا مستلقية فوق الفراش حين طرق سمعي صوت رجل غريب يتكلم مع عمتي ، حاولت ان اتبين الصوت لعلني قد استطيع ان اتعرف على صاحبه ، ولم استطع .. وبقيت ممددة في الفراش انصت اليهما لعلني قد اتبين شيئا مما يدور بينهما من الكلام ..

ثم نادتني عمتي بصوت مبحوح كأنها تستنجد بي لأخف اليها :

ـ ميادة . . ميادة . .

قفزت من مكاني . . عمتي تناديني ، اذن فالقضية تخصني انا ، هكذا قلت لنفسي وانا اندفع بكل ما اقدر ان اركض به لأصل اليها لحظة قبل اخرى . .

كان يقف عند عتبة باب البيت احد رجال الشرطة ، وكان يحمل بيده ملف فيه اوراق ، وكان يتكلم مع عمتي حين لمحني انزل الدرج اليهما ، فتوقف عن متابعة كلامه مع عمتي وراح ينظر الي ببرود وبلامبالاة . .

ولم استطع ان اقف لحظة لأنتظر منه ان يكون هو البادىء في الكلام ، فقلت وانا احاول بكل ماعندي من قوة ان ابدو لامبالية فيما يمكن ان يكون قد حدث :

ـ ماذا حدث ! . .

قال الشرطي بلهجة رسمية جدا وهو يحني رأسه كله على الملف الذي في يده ويقرأ بطريقة اثارت في نفسي المزيد من الرعب والفزع :

ـ ميادة عبدالكريم . . هل انت هي . .

قلت بسرعة كأني اريده ان يدخل في صلب الموضوع في الحال :

ـ ماذا تريد ! . .

قال وهو يتفحصني بنظرة عميقة فيها ريبة وشك :

ـ انت مطلوبة في مركز الشرطة . .

فزعت . . وجحظت عينا عمتي من الخوف وهي تتلقى كلمات الشرطي وكأنها سيل من الرصاص قد وجهته يد خفية لتقتلنا معا انا وهي مرة واحدة ، بينما وقف الشرطي يتأملنا بلا مبالاة . .

وطال وجومي ، ونظراتي تتيه في كل صوب من المكان تبحث بحيرة عن الشيء الذي يقدر ان يبدد كل تلك المخاوف التي تغلغلت في كياني

لتنخر فيه حتى تذيبه ، وانفاسي تعلو وتهبط كأنها تريدان تشق بسكين حادة صدري الصغير لتستطيع ان تنطلق منه الى الفضاء بعد ان حبستها فيه ، وقلبي يغوص الى اعماقي ، ويغوص ، ويغوص .. كأنه يعلم مسبقا انه هو اصل البلاء في كل هذه الامور التي انا واقعة فيها ويريد ان يتهرب من عبء المسؤولية ..

وبطيئا بطيئا ، اخذت استرد انفاسي ، وهدأت قليلا ، وقلت للشرطي وانا ارمق عمتي بنظرة خائفة كأني اريدها ان تعينني في اللحظة التي سأقع فيها بين قبضة القدر :

ـ لماذا مركز الشرطة ! .. هل اقدر ان اعرف لماذا ! ..

قال وهو يمعن النظر الي :

ـ لا ادري .. هم ارسلوني لكي ابلغك ، لكنهم لم يجبروني على احضارك بالطبع .. وانت حرة ان ذهبت ام لا ..

هدأت اعصابي اكثر من ذي قبل ..

اني حرة في ان اذهب او لا اذهب ، ولا احد يرغمني على الذهاب الى مركز الشرطة .. اذن فالقضية ليست خطرة ، وانا لاشيء سيصيبني ، والموضوع قد يهمني لكنه لن يؤذيني ..

ماهي الحكاية ! ..

قلت للشرطي بهدوء وانا اقترب منه قليلا وتحاول نظراتي ان تتسلل الى الملف الذي في يده لعلني قد استطيع ان اقرأ شيئا فيه يهمني :

ـ سأذهب .. هل اذهب الآن معك ..

ـ اذهبي لوحدك يا آنسة ، اما انا فعندي اوراق كثيرة ويجب ان ابلغ بها اصحابها ..

وخرج ..

وتركنا انا وعمتي نتيه في سحابة من القلق والحيرة . .

وقالت عمتي وهي تدفن جسدها في احدى المقاعد القريبة منها وقد خار كل شيء فيها :

ـ لاتذهبي يا ابنتي . . العني الشيطان ولا تذهبي . .

ترددت والحيرة تعصف بقلبي وعقلي معا قبل ان اقول لها :

ـ لكن ياعمتي ، يجب ان اعرف ما هو السبب الذي ارسلوا في طلبي من اجله . .

قالت تحذرني :

ـ مهما يكن السبب فلا تذهبي . .

لم اجبها . .

كنت قد قررت بيني وبين نفسي ان اذهب . .

●

وذهبت ..

لم استطع الا ان اذهب ..

ودخلت الى غرفة مأمور المركز بقلب واجف واعصاب محطمة كأني قد ارتكبت جريمة كبيرة لا يعلم بها الناس الا هذا الرجل واخاف في كل لحظة ان يفضحني امام كل الناس ويكشفني على حقيقتي لهم ..

حييته بإيماءة خفيفة من رأسي ووقفت ارنو اليه باضطراب شديد ..

كان مأمور المركز قد تأملني بما فيه الكفاية ، كأنه كان يتأمل واحدة قد اجتمعت فيها كل الأدلة لتدينها بالجرم لكنها بريئة ، وقال وهو ينتزع نصف ابتسامة من بين شفتيه ليلوك بها كلماته السريعة :

- الآنسة ميادة ..

اجبته ولم يزل الخوف يعصف بقلبي :

- نعم ..

تمتم ونظراته تضيع بين اوراق كثيرة كانت منتشرة امامه على المكتب :

- هل تعرفين رجلا اسمه صلاح ..

انهد كل حيلي مرة واحدة وانا اسمع اسم صلاح يردد هنا في مركز

الشرطة ، واحسست في نفس اللحظة ان اقدامي لم تعد قادرة على حمل جسدي الثقيل . . جسدي المثقل بالأوجاع والمخاوف ، ومادت الارض بي . . احسست كأن الارض تتفطر من تحت اقدامي لتنشق فتدفنني في جوفها . .

واستطرد وهو يتأملني برفق ويرى امتقاع وجهي :

ـ لحظة واحدة من فضلك . . تفضلي واجلسي . .

جلست . .

وضغط مأمور المركز على جرس صغير كان امامه فوق المكتب ، فانفتح الباب في نفس اللحظة ودخل منه احد رجال الشرطة ، فعاجله المأمور :

ـ اين صلاح . . احضره حالا ، واحضر معه المرأة . .

وخرج الشرطي بعد ان اغلق الباب وراءه . .

وعاد مأمور المركز يقلب الأوراق الكثيرة التي امامه على المكتب . .

وبقيت انا في مكاني لا ادري ماذا يدور من حولي من الاشياء ، وفي الرأس تحتار افكاري القلقة في تفسير ماقد يمكن ان يحدث في هذا العالم الغريب الذي اصبحت اكرهه . .

وتمزق رأسي تماما من لحظات الانتظار الرهيبة التي قضيتها مع هواجسي وحيرتي مما يدور من حولي . . وابتدأت اتضايق . . اشياء كثيرة تتمرد في كياني ، وتعصف بقلبي ، وتدمر لي اعصابي ، وتخنق في صدري انفاسي . . واريد ان اخمد كل شيء مرة واحدة لعلني قد استريح الى الأبد من كل هذه المتاعب . . اريد ان اهدأ . . ان تهدأ اعصابي ايضا ، ويهدأ ذلك الوجيب الذي تحدثه دقات قلبي السريعة ، وتهدأ انفاسي التي راحت تثقل على صدري وهي تضغط عليه بقوة لتسحقه . .

ثم ..

عاد الشرطي ..

وكان معه صلاح ..

وامرأة في العشرين من عمرها ..

وهببت من مكاني اليه في نفس اللحظة التي رأيته يدخل فيها الى غرفة المأمور .. كنت اريد ان لا افعل ذلك ، لكن شيئا لا ادري كنهه دفعني من مكاني دفعة قوية ليجعلني اقف لجانب صلاح في لحظة تخلى فيها الكل عنه ..

واحتار هو كيف يستقبلني في هذا المكان ونظرات المأمور تترصد كل حركة من حركاته ، فعاد واخفض وجهه عني الى الارض ..

لم استطع ان اصبر على السكوت ، وقلت لصلاح وقد نسيت تماما كل الذي كان بيننا من متاعب :

ـ صلاح .. ماذا حدث ياصلاح ! ..

عاجلني مأمور المركز وهو يفرق نظراته بيننا نحن الثلاثة .. انا وصلاح والمرأة التي لا اعرفها :

ـ هل تعرفيه يا آنسة ..

رددت وانا احول عيني عن صلاح الى المرأة التي تقف معه واحاول ان اربط مابينها وبين صلاح ، واحترت كيف اعلل وجودها معه :

ـ ماذا حدث ياسيدي ! ..

رد المأمور وهو يقلب شفتيه بامتعاض :

ـ صلاح هذا متهم بالسمسرة يا آنسة ، وقد ضبطته مفرزة الشرطة في بيت للرذيلة ..

صحت بكل صوتي كأني اتحدى مأمور المركز على ما يزعمه من

اكاذيب ملفقة لايمكن ان تمت الى الحقيقة بشيء :

ـ كلا . . كلا . .

استطرد مأمور المركز وكأنه لم يسمعني اصيح في وجهه :

ـ هل هو خطيبك حقا كما يدعي !. .

لم اجبه . .

واخذت استرداعصابي المنهارة ببطء وانا واقفة في مكاني اتطلع ببلاهة في كل الوجوه التي تلتف من حولي في الغرفة ، حتى التقت عيني بصلاح ، وسرت اليه ، ثم وقفت على بعد خطوة منه ، ورمقته بنظرة سريعة امتزج الغضب فيها بالنفور منه ، وقلت :

ـ صلاح ! . . حقا ! . .

قاطعني وهو يرفع عينيه بعد تردد الي :

ـ اني جائع . . جائع واريد ان اكل . .

احتقرته . .

احتقرته بكل مافي الكلمة من معنى ، واحسست في تلك اللحظة بان مثلي الأعلى الذي كنت اتمنى ان تبقيه الدنيا لي قد ذاب وانتهى الى الأبد ، وصلاح . . ذلك الذي كنت اتمنى ان تشفيه الايام وتنقذه مما ألمت به من العلل قد انتهى الى الأبد واصبح من احقر الناس الي . .

واشحت بوجهي عنه . .

ووقعت نظراتي على المرأة التي ادخلها الشرطي مع صلاح ، وابعدت عيني بسرعة عنها وانا اتجه الى مكتب المأمور بخطى سريعة ، وقلت للمأمور :

ـ هل استطيع ان اعود ياسيدي . .

ـ هل عرفت يا آنسة لماذا ارسلنا في طلبك هنا . .

- كلا..

- من اجل ان تكفليه ليخرج من الموقف حتى تتم محاكمته..

رددت وانا التفت نصف التفاتة الى صلاح وابعد عيني عنه بسرعه:

- اني لا اعرفه ياسيدي..

- يقول انه خطيبك..

ثرت مرة اخرى.. ثرت بشدة، واحسست باهانة كبيرة توجه الي هنا في هذا المكان، فتركت مكاني، وعدت الى صلاح.. سرت بسرعة اليه وكأني اريد ان ابلغه في نفس اللحظة التي طعنت فيها..

ووقفت امامه..

وتطلعت اليه باحتقار، فرفع وجهه الي.. وكان يبكي، ووجهه تغرقه الدموع، كأنه بتلك الدموع يحاول ان يجعل قلبي يلين عليه، واراد ان يتكلم.. حاول، ثم منعته دموعه..

وقلت له وانا اتحفز لمواجهته:

- ماذا تريد مني!.. قل لي، ماذا تريد!..

تمتم بتوسل شديد وهو يرمقني بنظرة ذليلة:

- ميادة..

بصقت في وجهه..

من شدة حقدي عليه في تلك الساعة بصقت في وجهه، وصحت بكل صوتي وانا التفت الى مأمور المركز:

- سيدي، اني لا اعرفه.. صدقني، اني لا اعرفه..

- لن تكفليه اذن ! ..

- اني لا اعرفه .. صدقني ، واريد ان اعود لو سمحت ..

- مع السلامة ..

و ..

مرة اخرى ، التفت اليه .. رمقته بنظرة محتقرة ..

وخرجت من غرفة مأمور المركز ..

وكانت الدموع تغرقني ..

●

- ١٨ -

اصبحت كالمجنونة ..

تصرفاتي في البيت تصرفات مجانين .. حركاتي وانا اتنقل من مكان الى مكان كأني غريبة عن البيت الذي قضيت فيه كل عمري كانت حركات مجانين .. الكلمات التي كنت اتفوه بها كانت بعيـدة عني .. افكاري .. نظراتي .. قلبي .. كل شيء في كان يجن في اليوم الف مرة ..

وابتدأت افقد السيطرة على اعصابي ، واثور لأتفه الاشياء ، واصرخ في وجوه الناس .. في وجه عمتي نجيبة ، وفي وجوه اطفال الجيران الذين كانوا يأتون الينا في البيت كلما استدعتهم عمتي نجيبة لتتسلى معهم كلما ضايقتها الوحدة . .

واخذت اخاف . .

اخاف من نفسي المجنونة التي تقودني في كل لحظة مقبلة الى الهاوية . .

كنت اطوف في البيت ابحث فيه عن بعض الاشياء الوهمية التي لم يكن لها وجود فيه ، ثم حين لا اجدها اسأل عمتي نجيبة عنها ، ويطول تساؤلي ، ثم يصل الى حد العراك معها ، فتتركني المسكينة اصرخ والعن واحطم كل شيء تقع يدي عليه وتذهب عني حتى اهدأ . .

وحين كنت اهدأ ، اكون قد نسيت كل شيء كنت قد فعلته في

لحظات الجنون التي كنت اعيش فيها . .

كنت اريد ان انسى كل شيء يشدني الى هذه الدنيا . .

واول تلك الاشياء كان صلاح . .

وبذلت المستحيل لأنساه . .

ولم استطع . .

كانت صورته دائما امامي . . صورته وهو يبكي في مركز الشرطة تقف منتصبة امامي تتوسل بي ان انقذه من المأزق الذي اوقع نفسه فيه . .

وكنت احاول ان ابعد صورته عن خيالي . .

كنت اخفي وجهي بيدي ، وكنت اخفيه في الوسادة . . كنت اريد ان اهرب منه . . لكني ، في كل مرة كنت اهرب فيها منه كنت اجد نفسي في آخر المطاف قد هربت اليه . .

واتعذب . .

ويطول عذابي . .

و . .

الى متى سأبقى هكذا . . اتعذب ، وتغرق الأوجاع هذا الجسد الممزق . . الى متى ابقى عائشة في نار محرقة لاترحم . .

* * *

كانت قد مضت بضعة اشهر على حادث المركز . .

و . .

وصلتني رسالة في صباح ذلك اليوم . .

فتحتها ، وقرأت :

عزيزتي ميادة ..

تحية طيبة ، واتمنى ان لايريك الله مكروها ..

عزيزتي ، واسمحي لي ان اردد اسمك مرة اخرى بعد ان خسرتك كلك مرة واحدة .. اسمحي لي ان اكتب لك هذه الاسطر القليلة لعلني اجد في كتابتها بعض السلوى والراحة لنفسي المعذبة ، ولعلني قد استطيع فيها ان اكفر عن ذنوبي الكثيرة نحوك ..

افكر دائما فيك . . واسأل نفسي دائما ، لماذا .. لماذا جعلتك تتحملين كل ذلك العذاب وانت كنت لاتتمنين لي الا السعادة . . لماذا اذقتك كل ذلك الشقاء وانت لم يكن ليفرحك في الدنيا الا ان تجديني سعيدا ..

اني الوم نفسي . . ودائما كنت انا السبب . . تصرفاتي الشاذة هي التي دفعت بي الى هذه الهاوية . . هل كنت سافلا . . هل كنت مجرما ! . .

لا ادري .. لا ادري ، كل الذي ادريه هو ان قلبي لايزال ينبض بالحب اليك ، فبالرغم من كل تلك الاشياء التي حدثت بيننا ، وبالرغم من اننا قد ابتعدنا كل هذا البعد عن بعض الا اني احس دائما بانك تقفين معي في كل مكان اقف فيه وتبذلين المحاولة تلو المحاولة من اجل حملي على التراجع عن منطقة الخطر التي القيت نفسي فيها . .

اجل ، ياميادة ، لعلنا نحن نختلف في شيء . . ربما في اشياء كثيرة ، لكننا لازلنا غير مختلفين في حبنا الكبير الذي قيد قلب كل منا بالآخر مدى الحياة . .

عزيزتي . .

صدقيني ، اني قد تغيرت الآن تماما عما كنت عليه . . لعل السجن

الذي انا فيه هو الذي غير كل شيء في ، وجعلني اعود الى نفسي بعد عمر طويل من الضياع . . او لعل الله كان يريد لي ان اكون شـريفا فاوقعني تلك الوقعة ليحكموا علي من بعدها بالسجن سنة كاملة . .

اني اعيش هنا في السجن حياة هانئة ، وكل شيء من حـولي يجعلني انسى دنيا الناس التي لم يعد لي فيها اي مكان . . الكل هنـا يحبوني ، وبالمناسبة . عندنا في السجن مكتبة فيها من الكتب ما اتمنى لو اقضي كل الوقت فيها لأقرأ كل ماتحتويه من الكتب . .

ميادة . .

ماذا اقول لك ايضا . .

اني اريـد ان اتـكلم . . وان اكتب . . اريد ان اكتب لك اكثر . . واكتب . . واكتب . . ولقد سألت نفسي اكثر من مرة من قبل ان اكتب لك هذه الكلمات . سألتها بخوف ، وبتردد : كيف اجسر بعـد كل الذي احدثته فيك ان اتجرأ واخاطبك . .

هل تدرين بماذا اجابتني نفسي . . هل تدرين بماذا . .

اجابتني من الأعماق آلاف الاصوات لتقول : اكتب ياصلاح . . اكتب لها لأن ليس لك في الدنيا من يستمع اليك غـيرها . . اكتب ، ودائما ستجد منها ، كما كنت دائما تجد ، الانسانة الكبيرة صاحبـة القلب الكبير الذي لم يعرف يوما ان يكرهك . .

وكتبت . . كتبت لك وقلبي يخفق في صدري من الخـوف . . وكل شيء في خائف ، متزعزع وخائف الا الأمل . . املي وحده يتضخم في كل لحظة ، ويكبر . . املي فيك ، وفي قلبك الكبير الذي اعتاد دائما وابدا ان يغفر لي . .

وكلمة اخيرة اود ان اكتبها . . كلمة اخيرة ، هي اني لا اريد منك بعد

اليـوم اي شيء الا ان تغفري لي ما سببته لك في الفـترة التي عشتها معي وانت تتعذبين لعذابي ..

واتمنى لك السعادة من كل قلبي .

صـــلاح

* * *

ما لقلبي اخذ يخفق في جوارحي ويرتعش كأنه عصفور صغير يبكي امه وهي بعيدة عنه بعد السماء عن الارض !.. ماهذه الأحاسيس تتدفق من كياني كلـه كأنها ينبوع قـد مضى على اختناقه الف سنة وتتسلل الى قلبي الدامي لتضمد الجراح العميقة التي احدثتها يدالقدر فيه !.. ما لعيني تذرف الدموع بحرارة فتغرقني في بحر من الراحة بعد ان كنت اعيش وســط عذاب لايرحم !.. مالدنيا تتبدل بهذه السرعة الغريبة من حـولي فيزول الظلام في لحظة من امام عيني ليفتح لي النور الطريق الى الحياة !..

اهكذا ، في لحظة انسى كل شيء ..

اهكذا ، انسى كل الجراح العميقة التي خلفها لي صلاح في قلبي ، وانسى العذاب الذي اذاقني اياه ، وانسى ايام البؤس والشقاء الطـويلة التي كنت احياها معه ، وانسي ايام عربدته ومجونه .. وانسى .. وانسى ..

اني احبه ..

احبه ، وهذه هي الحقيقة التي لا اقدر ان اكذبها ابدا .. احبه بالرغم من كل شيء ..

والذي يحب يغفر دائما كل الأخطاء ..

وانا احب ..

احب صلاح ، لذلك .. فاني دائما ، في اية لحظة من اللحظات اجـد نفسي مستعدة لتغفر له كل ذنوبه ..

وعدت الى الرسالة ، وقرأتها مرة اخرى . .

وقرأتها للمرة الثالثة ، والرابعة . . ثم ضاع العـــدد . . قرأتهـا حتى حفظت كلماتها ، كلمة كلمة . .

ودموعي تغرق الدنيا من حولي . .

هل اصدقه !. . هل اصدق مايقوله !. . لقد كنت اصـــدقه دائما ، وكنت اصدق توبته في كل مرة يعود فيها الي ، فماذا كانت النتيجة . .

كانت النتيجة ان قادني هذا القلب الى ما انا فيه الآن . .

لكني احبه . . اعود واقولها ايضا ، فماذا يادنيا استطيع ان افعل !. . وماذا ستكون النتيجة لو اردت ان لا اصدقه . .

هل سأستطيع ان اتجاهله ، وانساه . . هل استطيع ان انسى عمري ، وانسى الدنيا الرائعة التي كنا نحلم انا وهو فيها يوم ان كان يأخذنا الخيال بعيدا . . هل سأستطيع . .

كلا يا الهي . . كلا . . لا استطيع . .

لكني قد استطيع ان اضحي اكثر من اجله . . قد استطيع ان اضحي بكل شيء من اجل ان اعيده الي بعد ان قتلته الاقدار ولم ترحمه . قد استطيع . .

اني واثقة . . واثقة من نفسي اني استطيع ان اعيده الي بعد كل الذي كان . .

واثقة ، فماذا انتظر !. .

●

- ١٩ -

في الأيام الاخرى التي كانت تجر نفسها بتثاقل شديد لتمر من عمري ، كنت احس بقلق كبير يسيطر على كل جارحة في . .

كنت اتعذب . .

واعيش في النار التي لاترحم . .

واحترق في اليوم الف مرة . . كانت تحرقني خيالاتي الرهيبـــه التي اخذت تغزو كياني كله . .

هل اكتب له . .

وماذا اكتب . .

تناولت القلم اكثر من مرة لأكتب له . . حاولت ، وبذلت طاقة كبيرة من اعصابي وعواطفي لأضع له بضع كلمات على الورقة . . وكتبت . . كتبت كلمة . . ثم تلتها كلمة اخرى . . وانتهت الرسالة . .

ثم . .

مزقتها . .

كان فيها اشياء كثيرة لم اكن اريد ان اكتبها له ثم كتبتها من غير ان اعي لها . . كتبتها بقلبي . .

وكتبت غيرها . .

ثم ، مزقتها ايضا . .

اني لا استطيع ان اكتب له .. لا اقدر ..

ثم ..

ذات يوم ..

قررت ان اذهب اليه ..

لم اعد استطيع ان احتمل كل هذه النيران التي تلسع في كياني حتى تذيبه في العذاب ..

وذهبت ..

بأية حالة كنت وانا ذاهبة اليه لأراه في السجن..

لا ادري ..

كنت قلقة . . حائرة . . شاردة . . مضطربة . . مترددة . . خائفة . . حزينة . . سعيدة . . كان كل شيء في يعيش في دوامـــة من القلق والاضطراب . . كل شيء ، واكثرها كانت اعصـابي ، وقلبي الذي كان يرتعد مع كل خطوة تلقيها قدمي وانا في طريقي الى السجن . .

ووقفت امام باب السجن الكبير . .

واكثر من قـوة كانت تسحبني بعنف لتمنعني من الدخـول . . وكان عقلي يعمل بسرعة ، وبذكاء خارق . . لـكنه كان اضعف من ان يقـدر على التغلب على قلبي الذي كان يسيطر على كل شيء في . .

وطالت وقفتي امام شباك الاستعلامات . .

ثم تجرأت قليلا ، وسألت الموظف المسؤول وانا اغـرق في الحياء من المكان الذي اقف فيه :

ـ من فضلك يا استاذ . .

رشقني الموظف بنظرة سريعة حادة ، وتمتم :

ـ افندم !. .

ـ اريد ان ازور السجين صلاح ثابت . .

تأملني بعمق ويده تعبث بحافة الملف الذي امامـه ، ثم راح يقلب في الأوراق ، وتركني اتخبط في حـيرتي ، والعرق يتفصد من جبيني ، ومن اطرافي . .

ورفع موظف الاستعلامات رأسـه قليلا الي ، رشقني بنظرة اخـرى دافئة جعلتني ارتبك قليلا . . هل يعرف هذا الرجل ماهي الجـريمة التي ادانت صلاح وحكمته بالسجن ! . . هل يعرف هذا . . وانا . . هل يعرف من اكون انا بالنسبة لصلاح ! . .

ـ ليس عندنا هذا الأسم .

قلت في شبه توسل وانا اتعذب لجوابه :

ـ لكنه هنا ! . .

ـ هل انت متأكدة ! . .

ـ جدا ، وقبل ايام قليلة وصلتني رسالة منه . .

عاد وفتح الملف ، وراح يقلب في اوراقه بضـع لحظات . . ثم رفـع رأسه الي . . كانت نظراته قد لانت قليلا في عينيه . . اصبح ينظر الي برثاء وعطف بعد ان كان ينظر الى بريبة واشتهاء . .

وعاجلته وانا انتظر منه ان يقول شيئا فيريحني :

ـ هل وجدته ! . .

قال بحزن خفيف :

ـ اجل . .

ـ اين استطيع ان اراه . .

ـ البقية في حياتك . .

انتفض كل شيء في مرة واحدة . . وخارت كل قواي وانا اتلقى منـه

تلك الكلمات الباهتة، واحسست بروحي تنقبض في داخـــل جسدي، وبرأسي يدور .. واني افقد في لحظـة كل ماعندي من المقاومة على اسناد جسدي المتخاذل ..

وامسكت راسي بيدي، ورحت اعصر جبيني بشـدة كأني اريد ان استفيق من حلم ثقيل انا واقعة فيه ..

لكنها كانت الحقيقة ..

ولم استفق من الحلم ابدا ..

وعـــدت الى موظف الاستعلامات بعـد لحظات من التذمر، وسألته :

ـ هل انت متأكد! ..

ـ بالطبع .. صلاح ثابت .. مات بالذبحـة الصـدرية .. تفضلي الى الداخل وتأكدي بنفسك من طبيب السجن ..

تركته، وهرعت الى غرفة الطبيب ..

وتأكدت ..

مات صلاح ..

وترك لي رسالة قبل ان يموت .. تركها غير كامله، لعله كان يكتبها لي وهو على فراش الموت .. واستلمتها من الطبيب، ثم خرجت من السجن الى الشارع ..

وفتحت الرسالة في الشارع، وقرأت والدموع الحارة تنزف من عيني :

« عزيزتي ..

اغفري لي .. مرة اخرى اطلب فيها منك الغفران .. اني اتعذب .. اتعذب لأني قد سببت لك كل هذا العذاب الذي انت فيه .

ميادة ، آه لو تدرين كم اتألم كلما تذكرتك . . واتعذب . . ويذبحني الحزن حين اتأمل الحياة الرائعة التي كنا نحلم بها انا وانت في اول عهدنا بالحب ، ثم هذا الجنون الذي لعب بعقلي في تلك الايام العمياء التي عذبتك فيها حتى اضعتك . .

اني اكتب لك هذه الأسطر ولا ادري ماذا سيكون نصيبي من الدنيا بعد ان اترك هذا المكان . . لكن الذي ادريه هو اني قد تغيرت تماما عن ذلك الرجل الذي كنت تعرفيه ، واصبحت احس باني انسان ، ويجب ان اعود الى الحياة لأعيش عيشة الرجل الذي يحترم قبل اي شيء نفسه ورجولته . .

وسأعود الى كليتي لأواصل الدراسة فيها . .

وسأتخرج منها . .

وصدقيني يا ميادة . . . .

* * *

انتهت الرسالة . .

وعدت لأقرأها مرة اخرى . .

ومرة ثالثة . .

وبكيت . .

هل حقا قد انتهى كل شيء عند هذا المكان الذي انا فيه !. .

ومرت في الدرب الطويل وكل شيء في يذوب من الحزن . . ومن العذاب . . واحس كأني اتقدم مع كل خطوة من الخطوات التي

تتخطاها قدمي الى ساحة الموت . . وانفاسي تتلاحق في صدري ، ورأسي يكاد يطق من شدة ما تضطرب فيه من الافكار ، واعصابي المنهارة احملها معي الى ساحة الموت وكأني اريد ان اذبحها امامي قبل ان اموت . .

وقلبي تمزقه ذكرى حب عاش فيه بعض العمر ثم خنقته يد القدر في يوم رهيب . .

و . .

ماذا بقي لي من الدنيا !..

« تمت »

تم طبع الكتاب على
مطابع دار البصري
بغـــداد

٩ ـ ٢٠٠٠ ـ ١/٥/١٩٦٨

المؤلف :

* التائهة التافهة	روايــة	(١٩٥٨) نفدت
* اين تذهبين	«	(١٩٦١) نفدت
* كانت لنا ايام	مجموعة قصص	(١٩٦٦)
* الحب أقوى	روايــة	(١٩٦٧)
* بيت الذكريات	«	(١٩٦٨)

تحت الطبـع :

* العيون الجائعة	روايــة
* طريق البنات	«
* رحلت عني	مجموعة قصص
* خطيبها مدير شركة	مسرحية

المكاتبات

حازم مراد

مـكتب المثنى لتوزيع المطبوعات - شارع الوثبـــة

بغـــداد - الجمهورية العراقية

١٥٠ فاس عراقي

الثمن : ٢٠٠ فلس كويتي - اردني

٢٠٠ ق.ل.س